

الفصل العاشر

الدين وأهميته للإنسان

- مقدمة في نشأة الدين وتطور مفهومه .
- وظائف الدين الإسلامي للبرد والجامعة.
- الدين في المنهج الدراسي .
- الصلة الوثيقة بين ما يهدف إليه تعليم الدين الإسلامي وما يهدف إليه التعليم بعامة •

مقدمة

في نشأة الدين وتطور مفهومه (١)

. . .

لم يكن من المعقول أن يخلق الله الإنسان ويسكنه الأرض التي قدر أزلا أن تكون له مستقراً ومقاماً إلى حين ؛ دون أن يشرع له من الأسس والقواعد وأنماط السلوك والتعامل ما ينظم حياته فيها ويعبد له طريق الاتصال بربه الذي خلقه فسواه وبأخيه الإنسان الذي يقاسمه الوجود والعيش . فلقد كان هذا التشريع ضرورة طبيعية اقتضتها ظروف معيشة هذا الإنسان في الأرض وكده وسعيه من أجل إخضاع هذه الظروف لخدمته وجلب النفع له ، ومن ناحية أخرى لوصول هذه الخدمة وذلك النفع بما يرضى الخالق الذي قدر فهدي والذي أنشأ الوجود بعد العدم لغايات نهيلة مستهدفة .

ومع هذه الضرورة المستوحاة من طبيعة الخلق وإنشاء الوجود هناك ضرورة أخرى لهذا التشريع نبعث من الحكمة الإلهية التي اقتضت أن ينزل آدم وحواء على الأرض بعد أن تتأجج نار العداوة بينهما وبين إبليس الذي عصى ربه وطرد من رحمته لعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم ، ومن ثم نصب نفسه بعد طرده وإغوائه أداة الإضلال والانحراف عن شرع الله لآدم وذريته من بعده ؛ «قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٢)» ، و«قال : فيها أغويتني لأتعدن لهم صراطك المستقيم ؛ ثم لآتينهم من بين أيديهم ،

(١) هذا المبحث قاصر على الأديان الأنبياء التي نزلت من عند الله ، وتلقاها النبياؤه ورسله ليعملوا بها أو ليلغوها مع العمل بها إلى من أرسلوا إليهم . فلا يتمدى هذا إلى الدين من حيث هو اعتقاد أي اعتقاد بالرهبة قد تكمن في الأرواح الشريرة أو الطواطم أو في أي مظهر من مظاهر الطبيعة ، كما كان الحال في تلك القبائل البدائية التي اشتقت أديانها من طبيعة وجودها في الكون لا من وحى أوحي به إلى رسول .

(٢) سورة الحجر ، آية ٢٩ .

ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .» (١) .
 وإذا فالرءوف بعباده - كما قال هو عن نفسه - لا يترك عباده دون هداية في
 وجه هذا الصراع العنيف المنتظر مع ذلك العدو اللبود ، ودون تسليح بالإرشاد
 المبين في مقابلة ذلك الإصرار العنيد من الشيطان على استقطاب نبي البشر
 وضمهم بكل حيلة خبيثة إلى أعوانه وزمرته المرجومين . إن الإنسان بدون
 هذه الهداية وذلك الإرشاد سوف يضل ويحرف لأنه لا يعلم ما مسلك
 الضلال والانحراف ، وما طريق الهدى والرشاد ، وليس له بهذا التحدى
 السافر لإبليس من علم حتى يحذر أحابيله ويحتمب وسوسته وإغراءاته المهلكة .
 « ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنا نذير
 مبين ؛ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت
 فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون
 إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن
 تسجد لما خلقت بيدي أسكتبرت أم كنت من العالمين ، قال أنا خير منه خلقتني
 من نار وخلقته من طين ، قال فانخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي
 إلى يوم الدين ، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين
 إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعرتك لأغوينهم أجمعين » (٢) .

وإذا كان الملائكة الأطهار البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
 ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ؛ لا يعلمون شيئاً إلا إذا أعلمهم
 الله به كما حكى الله عنهم في قصة خلق آدم حيث قال : « وعلم آدم الأسماء
 كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ،
 قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » (٣) ؛ وإذا كانت
 هذه هي حال الملائكة فيكيف بآدم أن يعرف تنظّمات الحياة الدنيا وأحوالها

(١) سورة البقرة ، آيات ٢١ ، ٢٢ .
 (٢) سورة « ص » ، آيات ٦٩ - ٨٢ .
 (٣) سورة الاعراف ، آيات ١٦ ، ١٧ .

في أرض هبط عليها لأول مرة ولم تسبق له بها معرفة، وكيف يعرف ما غيب عنه وعن ذريته من أمور الآخرة !!! .

لأنها إذاً ضرورة ملحة تابعة لخلق آدم والظروف التي أحاطت بهذا الخلق أن ينظم الله سبحانه وتعالى له حياته في الأرض المجهولة التي هبط عليها، ويهد له بالأحكام والقوانين والأسس المختلفة ما ييسر له سبيل العيش فيها، ويصله بربه الذي أنعم عليه بنعمة الوجود. ومن ثم فليس ببعيد ولا بغريب أن نقول إن الدين قديم النشأة قدم آدم عليه السلام.

ولقد عاش آدم في الأرض التي قدر له أن يهبط عليها، وكانت له ذرية وتناسل، واتسعت آفاق الحياة وال عمران تدريجياً على ظهر هذه الأرض كلما تمت ذريته، وتتابع أجيالها، وتشعبت مسالكها، وتفرقت بها الأهواء والأغراض طبقاً لسنة التطور والارتقاء الوجودي. فكان لا بد مع التطور والتشعب أن تنشأ ظروف لم تكن، وتختلف أحوال عن ذي قبل، وتتبدى حاجات كانت في العدم. ومن شأن هذا كله أن ترتب عليه متربات جديدة، وأن تعرض حاجات ومطالب ما كان يصح أن تقوم على ظروف سبقت؛ مما جعل أمر الحياة الدنيا والحياة الآخرة عسير الفهم، صعب القياد، محتاجاً إلى تنظيم وإيضاح بعد تنظيم وإيضاح؛ وبخاصة مع وجود هذا الشر الدائم المشتمل في إبليس، فلقد طلب من ربه أن يبقى مضلاً مغوياً إلى يوم القيامة فأجيب إلى طلبه لحكمة قدرها الله سبحانه وتعالى على عباده من بني آدم، بل وصلت الحال بهذا الرجيم اللعين أن يأخذ الأمر مأخذ التحدى فيعلن قبحاً يحكيه رب العزة في قرآنه الحكيم قال: «أرأيتك هذا الذي كرمت على، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته لإقليات» (١) «وقال لأحتنن من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأضلنهم ولأمننهم ولأمرنهم فليمتكن أذان الأنعام، ولأمرنهم فليغيرن خلق الله» (٢). ومن غير الله - الذي يعلم من خلق وما خلق - يستطيع أن

(١) سورة الاسراء، آية ٦٢.

(٢) سورة النساء، آيات ١١٨، ١١٩.

يدبر ويشرع. لهُوَاء جميعاً. ومن هنا كانت حكمته الإلهية أن اجتنار من بنى البشر بين الحين والحين وكلما دعت الظروف المتغيرة رسلا مبشرين ومنذرين بتشريعات أنزلها الله سبحانه عليهم وأوحى بها إليهم لتكون منارة للناس في دنياهم وليجتازوا بها ابتلاءاته إياهم بنجاح ، و «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (١).

ولقد شاءت إرادة الخالق سبحانه أن يرسل الرسل بشرائع ذات أصول واحدة وعموميات لا تختلف « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٢). « يأبى الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً أتى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٣). أى إن أمتكم جميعاً متحدون في العقائد وأصول الشرائع التى أرسلتم بها ، متفقون في الإيمان والتوحيد في العبادة (٤) ؛ ذلك لأن الخالق واحد ، والمشرع للجميع لم يتعدد ، والدينونة والخضوع لا يصح إذاً أن تكونا لغير هذا الخالق وذلك المشرع . ومن ثم فالعبود بحق في كل الشرائع السماوية هو الله وحده لا شريك له ، ويوم البعث حق على جميع العباد من لدن آدم عليه السلام حتى اليوم الموعود أن يؤمنوا به ، والثواب والعقاب على ما قدم الإنسان وآخر بالجنة والنار مقرران في كل تشريع ، والإيمان يرسل الله وملائكته واجب مفروض في أى عهد وعصر ، وليس لأحد في أى زمن من الأزمان أن يستحل مال غيره أو دمه أو عرضه إلا بحقه .

ومن ناحية أخرى هنالك تفصيلات تشريعية ومسالك قرعية تضمنتها الأديان السماوية ، وكانت في أحدها تختلف عنها في الآخر . ومن ذلك مثلاً أساليب التوبة يقتل النفس في شريعة موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم :

(١) سورة النساء ، آية ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) سورة الشورى ، آية ١٣ .

(٣) سورة المؤمنون ، آيات ٥١ ، ٥٢ .

(٤) اللخر الرازى ، اقتصر المجمع ، الجزء الثالث ، مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد

لنشر القرآن الكريم والمكتب الإسلامية : القاهرة ، ص ٨١ ، ٨٢ .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فأقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » (١). ومن ذلك أيضاً تحريم الاشتغال بغير العبادة - ومنه صيد البحر - يوم السبت على بنى إسرائيل كقول الله تعالى : « وأسألم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سببتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيتهم كذلك ذبواهم بما كانوا يفستقون » (٢). وذلك على خلاف ما هو معروف في شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث إن التوبة من الذنوب لها أسلوب آخر قوامه الاستغفار والرجوع إلى الله : « فن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » (٣). « من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » (٤). « وإنى الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (٥). وحيث إن العمل وصيد البحر حلال في جميع الأحوال والأيام بخلاف صيد البر الذي يحرم مع الإحرام « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً » (٦)، كذلك حرم الله على بنى إسرائيل أكل الحيوانات ذات الأظفار لحمًا وشحمًا وكل شيء إلا البقر والغنم فقد حرم عليهم شحومهما الخالصة وشحوم الكلى ؛ يقول الله تعالى في هذا الصدد : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم (٧) وليس شيء من هذا محرماً في الشريعة الإسلامية ، إذ يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : « قل لأجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه

(١) سورة البقرة ، آية ٥٤ .

(٢) سورة الاعراف ، آية ١٦٢ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٣٩ .

(٤) سورة الانعام ، آية ٥٤ .

(٥) سورة طه ، آية ٨٢ .

(٦) سورة المائدة ، آية ٩٦ .

(٧) سورة الانعام ، آية ١٤٦ .

إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به (١). بل قد أباح الله هذه المحرمات للمضطر « فن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم (٢) ». ومن ذلك أيضاً قطع موضع النجاسة وفرض خمسين صلاة في اليوم والليلة ، وصرف ربع المال للزكاة في شريعة موسى عليه السلام : والأمر يختلف عنه في شريعتنا المحمدية والشرائع الأخرى .

ولقد كانت تحية الملوك والعظماء في عهد يعقوب ويوسف عابهما السلام بالسجود ، ولم يكن ذلك محرماً في شريعتهما ؛ ومن ثم سجد يعقوب لأخيه « عيسو » حين تلاقيا بعد تفرق (٣). وحكى القرآن الكريم عن يعقوب وزوجه وأولاده الأحد عشر حين : « دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ونحروا له سجداً » (٤). أما في الشريعة المحمدية فالسجود لغير الله محرم . ففي فيض التقدير . وكانت تحية من قبلنا السجود لمن يلقونه فحرم علينا السجود لغير الله ، وأعطينا مكانه السلام (٥). وعن عبد الله بن أبي أوفى قال : « لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأصحابقتهم وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن أفعل ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تفعلوا ، فإني لو كنت امرأةً أحدأ أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . . . » (٦).

(١) سورة الانعام ، آية ١٤٥ .

(٢) احد مصطلحى المراغى ، تفسير المراغى ، الجزء الثالث عشر ، شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٧١ ، ص ٤٢ .

(٣) سورة يوسف ، آيات ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) محمد الدعو بعبد الرؤف المتاوى ، فيض التقدير : شرح الجامع الصغير ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى : القاهرة (د.ت) ص ١٥٠ .

(٥) مسد بن علس بن محمد الشوكانى ، نيل الأوطار : شرح متقى الأخبار من أحاديث الأخبار ، الجزء السادس ، مكتبة ومطبعة مصطلحى البابى الحلبي وأولاده : مصر . (د.ت) ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

وفى شرع يعقوب عليه السلام كان جزاء السارق أن يسترق بسرقة كما
حكى القرآن الكريم فى قصة إخوة يوسف حين اتهموا بسرقة صواع الملك ،
ثم انتهى الأمر بأخذ يوسف عليه السلام أخاه « بنيامين » فى سرقة هذا الصواع
ادعاءً . قال الله تعالى . « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ،
ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد
صواع الملك ولن نجاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا
لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فإ جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا
جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل
وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ
أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله » (١) . ونحن نعلم أن السارق فى الإسلام
تطيع يده بالشروط المفصلة فى حد القمطع ، قال الله تعالى . « والسارق
والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (٢) .

ولقد اقتضت حكمته تعالى أن يمدب أقواماً كذبوا رسلهم بالإهلاك فى
الدنيا على حين أنه لم يعذب ذلك العذاب أقواماً آخرين . وفى ذلك يقول الحق
تبارك وتعالى . « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان
أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد
جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابتين ، فكلنا أخذنا
بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من
ضغننا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون » (٣) . ويقول الله تعالى فىمن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم من
قومه حين قالوا . « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر

(١) سورة يوسف ، آيات ٧٠ - ٧٦ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٢٨ .

(٣) سورة العنكبوت ، آيات ٢٨ - ٤٠ .

علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (١). «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (٢).

وهكذا اختلفت الشرائع التي شرعها الله لعباده من رسول الله إلى رسول في تفصيلاتها وتفرعاتها . وصدق الله حيث يقول . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجمع لكم أمة واحدة » (٣). « أى ولو شاء الله تعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد تسرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد واحد وأخلاق واحدة وطور واحد في معيشتكم ، فصلح لكم شريعة واحدة في كل الأزمان ، فتكوزن كسائر أنواع المخلوقات التي يتف استعدادها عند مستوى معين كالطير والتمل ؛ لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه » (٤).

ولعل الأسباب الداعية إلى مغايرة الشرائع في تفرعاتها ترجع إلى ما يلي .
أولاً . إن ظروف الناس تختلف على مر العصور ، وتباين أحوالهم ونظم معيشتهم والعادات التي يعتادونها ؛ مما يقتضى هذه المغايرة في التدابير والنظم التي تحكم تعامل الناس بعضهم مع بعض ، وتعاملهم مع ربهم ، مع بقاء الأصول الدينية من عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان باليوم الآخر وغير ذلك مما أشرنا إليه سابقاً ؛ بقائها موحدة بين جميع الشرائع ؛ لأنها ترجع في فاعليتها إلى عظمة الخالق الباري المصور ، وإلى التنظيم المحكم الذي نظم به سبحانه أمر الدنيا والآخرة بعامة من أجل الصالح العام لكل البشر بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان وظروف العالم الخاصة . ولعل في قوله تعالى «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» (٥) ، إشارة واضحة

(١) سورة الانفال ، آية ٢٢ .

(٢) سورة الانفال ، آية ٢٣ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٤٨ .

(٤) أحمد محطى المراعى ، مرجع سابق ، الجزء السابع ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٥ .

(٥) سورة البقرة ، آية ١٠٦ .

إلى هذا المبدأ، فهو تعالى يراعى ظروف الناس وأحوالهم المعيشية فيما ينزل من آيات ويشرع من أحكام، فينسخ ما لا يتوافق مع هذه الظروف، ويأتي بما هو خير من التدبيرات والأحكام التي تساهرها وتنسجم معها. وإذا توسعنا في معنى التشريعات الفرعية ومطابقتها لأحوال الناس ونزلنا إلى المشرع البشرى الذى اجتهد فيما لافص فيه - حيث ذلك جائز في الإسلام - وجدنا الشافعى مثلاً - وهو حجة في الفقه الإسلامى - يضع من الأسس والأحكام التشريعية باجتهاده حين كان بالعراق ما كان يسمى بالمذهب القديم، ثم عدل عنه فيما بعد حين انتقل إلى مصر وأنشأ أحكاماً مخالفة فيما سمي بالمذهب الجديد. ولقد كان أبو حنيفة - وهو ذو شأن عظيم وله مذهب فقهى منتشر - يأخذ في حسابه حين يجتهد ببعض التشريعات ما درج عليه الناس وألفوه، ويعال ذلك بعموم البلوى قاصداً شيوع الاستخدام واستحكام العادة بين الناس.

ثانياً: إن الجنس البشرى في تطوره عبر العصور يتدرج تدرجاً في العقل والتفكير، واكتمالاً في الحكمة والمعرفة؛ شأنه في ذلك شأن الإنسان الفرد يبدأ طفلاً في العقل والمعرفة ثم يكبر عقلاً ومعرفة بالتدرج، وينضج تفكيراً وحكمة كلما خطاه الزمن بخطواته. ومن القواعد المعروفة أن كل مخلوق له بداية وله نهاية، وفيما بين البداية والنهاية هناك أطوار متدرجة في الترقى، وكذا يصدق ذلك على الفرد يصدق على الجنس البشرى بعموميته. وإذا كان الأمر كذلك فمن غير المشكك فيه أن تتنوع التشريعات والأحكام التفصيلية في الأديان طبقاً لمستوى النضوج العقلى والاكتمال الفكرى والحضارى.

ومن ثم كانت معجزات الرسل السابقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حسية بمعنى أنها تخاطب الحواس، وتنحو نحو التأثير المادى. وتبعد عن دائرة المخردات، وذلك ما يشير إليه علم النفس في دراسة الإنسان وتطبيقه التربوية السليمة في تعليمه. فقد أثبت علم النفس أن الطفل يبدأ بمقدرة عقلية محدودة، ثم تنمو مقدرته العقلية بازدياد عمره الزمنى على تفاوت بين الأشخاص،

وهو مع المقدرة العقلية المحدودة لا يستطيع التعامل إلا مع المحسوسات ، ولا يفهم إلا المواقف المرتبطة بما يحس به برؤية أو تذوق أو شم أو ما إلى ذلك . ثم يتدرج مع ارتفاع قدرته العقلية قرباً من فهم المجردات والمنطق القائم على الكلمة ليس غير .

ولقد أخذ علماء التربية هذا المعنى في الاعتبار عند ما أشاروا بأن طفل المرحلة الابتدائية بعامة وكذلك الكبير المتأخر عقلياً ينبغي أن تقدم لهما المعارف والمعلومات في صور حسية حتى يفهماها ، وأن تكون مواقف التدريس لهما مليئة بالوسائل التعليمية التي تقر بها له من عالم المحسوسات (١) .

ومن ناحية أخرى كانت هذه المعجزات السابقة حسية مادية لأنه أريد أن تكون قاصرة على المعنيين بها من منطلق أن رسالات من ظهرت على أيديهم ليست خاتمة ولا شاملة ؛ فناسب أن تكون على هذا النمط الذي لا يتعدى تأثيره إلى غير من أرسل إليهم ممن قد لا يتأثرون بما تأثر به غيرهم من حيث إنهم لا يهتمون بما اهتموا به أو لا يعنيههم هذا اللون من الآيات كما عناهم .

ومن هنا كانت معجزة موسى عليه السلام كما نعرف في مثل قوله تعالى : « فالتى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » (٢) . وغير ذلك مما هو منبث في آيات كثيرة من القرآن الكريم . وكانت معجزة صالح عليه السلام أن أخرج بإذن ربه الناقة من الصخر لها شرب ولقومه شرب يوم معلوم ، وقال لهم : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » (٣) . وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ونحو ذلك من المعجزات المحسوسة التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله الكريم : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنخا لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه

(١) راجع في هذا الكتاب ص ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) سورة الشعراء ، آيات ٢٢ - ٢٣ .

(٣) سورة هود ، آية ٦٤ .

فيكون طيراً بإذن الله، وإبرىء الأكمة والأبرص وأحبي الموقى بإذن الله، وأنبيكم بما تأكلون وما تلخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» (١). وفي قوله تعالى في موضع آخر: «إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» (٢). وكانت معجزة إبراهيم سلامته من النار المظيمة اللهب التي ألقى فيها كما حكى القرآن الكريم: «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين، ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها العالمين» (٣).

وهكذا كانت معجزات الرسل السابتمن من ذلك الصنف اللصيق بأدوات الخس في الإنسان، والمؤثر عليه تأثيراً مادياً يليق بمستويات عقاية محدودة لم تبلغ بعد النضج الذي يؤهلها للارتفاع إلى مستوى المجدات في الفهم والخطاب. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا القرآن الكريم قد أرسل خاتماً للرسل والأنبياء: «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (٤). وكانت رسالته شاملة جميع الخلائق لا فرق بين حضر ومدبر ولا شرق وغرب: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» (٥)، «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» (٦)، وذلك بعد أن نضجت البشرية عقلاً وارتفع مستوى تفكيرها ارتفاعاً كبيراً هو نهاية المطاف في هذا الصدد، ولا أدل على ذلك

(١) سورة آل عمران، آية ٤٩.

(٢) سورة المائدة، آيات ١١٢ - ١١٥.

(٣) سورة الأنبياء، آيات ٦٨ - ٧١.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٤٠.

(٥) سورة سبأ، آية ٢٨.

(٦) سورة الاعراف، آية ١٥٨.

ما بلغه الإنسان من العلم الذى قطع شوطاً كبيراً فى التطور منذ بعثته صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من الفيض الهائل والعمق الكبير والضرب فى كل مجال. ومن ثم ناسب أن تكون معجزته الكبرى والأساسية من نوع آخر يختلف عن تلك المعجزات السابقة مما يتلاءم مع ذلك الارتقاء الفكرى الذى سيحدث ويتطور ارتفاعاً وعمقاً وشمولاً إلى يوم القيامة؛ إنها « القرآن » البعيد فى إعجازه عن المحسوس الوقتى الأثر، المحدود بأقوام بأعينهم، المركز على مخاطبة العقول والعقول فقط (١)، وهى قسمة مشتركة بين بنى البشر بلا استثناء حتى جعلت خاصة مميزة للإنسان وأخذت فى تعريفه فليل : الإنسان حيوان عاقل أو مفكر ، ولن يختلف مفهوم الإنسان هذا إلى يوم يعثون. وإذا فعجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذت فى اعتبارها أمران :

الأول : أن من أرسل إليهم هم ذروة البشر فى التطور الفكرى ؛ أولئك الذين جازوا مرحلة الطفولة فى هذا الصدد ووصلوا فيه إلى القمة ، فلم يعودوا فى حاجة إلى معجزة محسوسة تؤثر تأثيرها المادى على النفوس ، إذ قد وصلوا إلى مستوى فهم المخبرات والتأثير من طريق المنطق والكلمة المعقولة والاقتناع بعيداً عن الهوى والانفعالات التى تستثار عادة بخوارق العادات المادية ، ولذلك محدثنا القرآن الكريم أن الله الذى خلق الناس ويعلم من خلق يصف من لم يهتد بهدى القرآن ولم يتبع رسوله بالبعد عن اتباع العقل والارتقاء فى أحضان الهوى ، وفى ذلك يقول تعالى : « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ، أم نحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » (٢)، ويقول مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تطع من

(١) لا ينشئ هذا ان كان للنبي صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كنبع الماء من بين أصابعه ، وتسيب الحمى بين يديه ، وحنين الجذع ، وغير ذلك . ولكن هذه المعجزات لم تكن أساسية فى اثبات رسالته صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت عرضية أتت بها الظروف الطارئة ، وانتفضها بعض الأحوال الوقتية .

(٢) سورة الفرقان ، آيات ٤٣ ، ٤٤ .

من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً» (١)، ويتمول أيضاً :
« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا
على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » (٢). وحين يدعو الضال إلى الرجوع عن ضلاله
مخاطب عقله وينكر عليه تشبّهه بالآيات المحسوسة والخوارق المادية فيقول
جل وعلا : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر
عن قوم لا يؤمنون » (٣) ، « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتذر الأنهار تفجيراً ، أو تسقط السماء كما
زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان
ربي هل كنت إلا بشراً رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن
قالوا أبعث الله بشراً رسولا » (٤) ، « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟
سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش
العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو
يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأني تسحرون ؟ » (٥) ،
وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تنكر على المعاندين والمعارضين والمعاصين تطليقتهم
للفكر وانحرافهم عن منطق العقول . بل إنه في مواطن كثيرة من الكتاب الكريم جعل
الآيات التي ينبغي أن تكون لهم وأن يطلبوها ؛ من جنس ما تخاطب به العقول . فقال
تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » (٦)
وقال : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا
نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (٧) ، وقال أيضاً

(١) - سورة الكهف ، آية ٢٨ .

(٢) - سورة الكهف ، آية ٥٧ .

(٣) - سورة يونس ، آية ١٠١ .

(٤) - سورة الإسراء ، آيات ٩٠ - ٩٤ .

(٥) - سورة المؤمنون ، آيات ٨٤ - ٨٩ .

(٦) - سورة آل عمران ، آية ١٩٠ .

(٧) - سورة العنكبوت ، آيات ٥٠ ، ٥١ .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للمالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ؛ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خفياً وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ؛ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » (١) . . . وكثير غير هذه الآيات .

الثاني : أن من أرسل إليهم - وهم آخر من يرسل إليهم ، وسيتمد بهم وبذريهم الزمن إلى يوم القيامة - سوف لا يفقون في تطورهم العقلي عند الحد الذي كانوا عليه في بداية البعثة المحمدية ، بل سيجتازون هذا المستوى إلى مستويات أخرى أرق وأفضل وأعمق ، وسيخوضون في بحار من العلم والمعرفة تتسع آفاقها وتنوع مناحيها ويعظم فيضاتها . وخير دليل على ذلك ما نشاهده اليوم من علم زاخر وفكر جبار وصل بأصحابه عبر الآفاق إلى غير الأرض من الكواكب كالتممر والزهرة وغيرهما ، واخترق بهم الفضاء ليعرفوا عن هذه العوالم وما يحيط بها ما لم يكن يصدقه عقل لولا أنه وقع . ومن يدري ماذا سيأتي به الغد وبعد الغد إلى يوم تقوم الساعة ؟ ! ! ! .

وإذا فليس من المعقول ولا المقبول أن تكون معجزة خاتم الأنبياء ومن أرسل إلى الناس كافة في زمانه وبعد زمانه حتى يوم القيامة - وهم على هذا النمط الذي وضعناه من التطور الفكري والعلمي - من جنس ما جاء به الرسل قبله معجزات حسية يتنبى مفهوما وتأثيرها بانتفاء من تأثر بها وأحس فاعليتها وإلا كان من الممكن أن يدعى اللاحقون أن ما حدث مما لم يحسوه هم كان خيالاً ، وأن لهم مندوحة في عدم التصديق به لأنه لم يقع أمامهم ولم يتأثروا به ، وقد يكون من تأليف الرواة لسبب أو لآخر . وإذا كنا اليوم نسمع من بعض

المسلمين قولاً عجباً هو عدم الاعتراف بالأحاديث النبوية أصلاً من أصول التشريع لأن الزمن قد عني عليها ، ولأن السنة الرواة قد لا كتبها - وكثير منهم الكاذبون على حد قولهم - إذا كنا نسمع اليوم هذا العجب العجيب فكيف بنا نسمع لو أن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم كانت من ذلك النوع الوقتي المرهون بظروف خاصة ، والذي يحس به من وقع أمامهم ولا يتعداه أثراً إلى ما يأتي بعده من مثل هؤلاء الذين يتلاعب بعقولهم الشيطان ! ! .

ولكن من المعقول والمقبول أن تكون معجزة هذا الرسول الأكرم هي القرآن ؛ ذلك الكتاب الذي يخاطب العقول حيث العقول لن تنزع من بني البشر حتى نهاية الدنيا ، والذي يرتفع بلفظه ومعناه عن تلك المحسوسات الوقتية الأثر إلى مستوى سام وراق لا يتصور أن يفنك عنه مهما تعاقبت الأجيال وتوالت الدهور ؛ « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (١) . « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (٢) . « أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » (٣) . ولقد جاءت المعجزة بهذه الصورة لتظل معجزة لمن أرسل إليهم - وهم جميع شعوب الدنيا إلى يوم البعث - مهما ارتفعت مداركهم وطغأ طرفان علمهم ، وجاعوا بالحديد من بين ثنايا تجارتهم ودراساتهم وتقنياتهم .

ولست أريد أن أدعى مع من يدعى أن القرآن الكريم من منطلق قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٤) . قد جمع نظريات العلوم وقوانين المعرفة الميثرية في مجالات الطب والهندسة والفلك والرياضة وغير ذلك ؛ لأن القرآن لم يكن أبداً ولن يكون أبداً على غرار تلك الكتب التي تولف في هذه المجالات مبنياً لقوانينها ونظرياتها والحقائق المكتشفة والمستكشفة فيها ، وإلا لكان مثلها عادياً لا إعجاز فيه ، بل لكان داعية إلى تعطيل الفكر ، ووقف حركة

-
- ١) سورة البقرة ، آية ٢ .
 - ٢) سورة فصلت ، آية ٤٢ .
 - ٣) سورة الفرقان ، آية ٦ .
 - ٤) سورة الانعام ، آية ٢٨ .

الكشف والاختراع وتنتور العلمى ومتابعة الدراسة والبحث والتقصى والتجربة ،
 واصدق عليه افتراء المقترين من أنه هو والإسلام الذى يدعو إليه مشبط لهم
 من يؤمن به من العلماء ، مؤكدا لعمول الباحثين إن هم تابعوه ، قاطع على من
 يندكر تفكيره ، وعلى من يريد أن يعلم علمه ؛ ذلك لأنه إذا كان من
 عند الله حقاً - وهو كذلك لا شك - فإن ما جاء به من نظريات وقوانين ينبغى
 ألا يتطرق إليها الشك ولا يمكن أن تغيرها عقول البشر القاصرة ، ومن ثم فليس
 لك بعدها أيها الإنسان طلب فى استزادة أو منفذ إلى شىء جديد ، فقف
 إذاً خاشعاً خاضعاً مؤمناً منفذاً مطبقاً ، وليس لك إلا أن تكون أداة لا غير ،
 وليس لعملك أن يسبح وراء نظريات أخرى أو قوانين معدلة ولا كفرت بربك
 وصل بك الطريق . وهنا يحق لمستائل أن يسأل : ولماذا خلق الله العمول فى
 البشر ؟ وأى وظيفة لها تكون وقد قطع عليها الطريق وسلب منها قوة
 التفكير ؟ ! ! ! .

والذى نعتقده أن القرآن الكريم على عكس ذلك تماماً ؛ فهو يحثى جهود
 العلماء فى سبيل العلم ، ويدعو إلى استدامة الدراسة والبحث من أجل الوصول
 إلى الجديد الذى يثبت قدرته وعظيم شأنه تعالى بما يؤكد أنه الخالق الأوحد
 المعبود بحق ، وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى
 يتبين لهم أنه الحق » (١) . خير شاهد على ذلك ؛ إذ لا تشير هذه الآية
 بالقطع إلى معجزات خارقة للعادة يريهم الله إياها فى الآفاق وفى أنفسهم ؛
 لأن زمن المعجزات قد انقطع بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما سيكون
 ذلك بشىء آخر فى مقدور الإنسان وفى مستوى ما يدرك ويعلم وهو البحث
 والدراسة والعلم يمتطيها للوصول إلى مستكشاف لم تكن ، واختراعات لم يتوصل
 إليها السابقون ، وقوانين تحكم مظاهر الطبيعة التى تحيط به مما عجز فى حين
 من الأحيان أن يتوصل إليها . أليس فى هذا دعوة ماحدة إلى دوام العمل الفكرى

وعدم الانقطاع عن الدراسة والبحث ١٩ وإذا آمننا أن القرآن باق معجزة إلى يوم القيامة فلن تنقطع دعوة هذه الآية إلى ما تدعو إليه إلا بانقطاع الحياة على وجه الأرض . وأمام هذا المعنى لن يكون هناك حق لقول من يقول : إن حقائق العلم اليوم ثابتة ، ومن ثم فلا جديد لمن يريد الجديد؛ لأننا نقول : إذا كان الأمر كذلك فذلك دعوة صريحة إلى توقف دولاب العلم والعلماء عن الدوران ، وما قال بذلك أحد. يقول العقاد عن رأى الفيلسوف البروفسور هـ . د . لويس "Lewis" « إن الحقائق التي يمررها العلم والفكر لا تعدو أن تكون حقائق نسبية بالإضافة إلى غيرها كما نقول في مصطلحات المنطق العربية . وبعض هذه الحقائق مقياس لبعض ، ولكنها جميعاً لا تثبت للذهن بحال من الأحوال بغير القياس إلى حقيقة مطلقة أبدية تحيط بها جميعاً : وهى الحقيقة الإلهية . ويضيف العقاد « وليس البروفسور « لويس » ممن يستضعفون البراهين الفكرية التي يستعان بها على إثبات وجود تلك الحقيقة ، وليس هو كذلك ممن يتمتعون بها ويحسبونها يقيناً قاطعاً يحسن السكوت عليه ، ولكنه يرى أن هذه البراهين هى واجب العقل الذى لا يجوز له أن يتخلى عنه فى سعيه إلى هذه الحقيقة وإلى كل حقيقة «(١) ، على أن من العلماء المشهود لهم فى السبق العلمى أمثال « مصطفى نظيف » من قالها صريحة بأن « العلم يؤلفه الذهن أو العقل من مشاهدة ظواهر العالم المحسوسة ودراستها ؛ وهو متغير ، فبينما نرى النظرية العلمية صحيحة فى وقت من الأوقات لأنها توافق معلومات ذلك الوقت إذ بها قد عدلت أو نبذت واستبدلت بها نظريات غيرها تكون أصلح وأكثر ملاءمة للمعلومات المعروفة فى وقت آخر ، وتاريخ العلم مملوء بالأمثلة الدالة على ذلك : إذن النظريات والآراء والقواعد والقوانين

(١) عباس محمود العقاد ، الله : كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٨ - ٩ .

العلمية ليست ثابتة مطلقة يمتنية ، إنما هي متغيرة إضافية» (١). وإن صحح في المنطق المتساهل أن ندعى ثبوت الحقائق العلمية فليس ذلك إلا ثبوتاً نسبياً مرهوناً بالظروف والأحوال والحوادث التي أدت إليها وساعدت على الكشف عنها ؛ إذ الواقع الملموس يبنى الثبوت المعلق لتلك الحقائق العلمية ، فالذرة يوماً كانت أصغر شيء في الوجود ، وهي إذاً لا تنفت ، ثم جاء العلم المتطور بما ينقض ذلك وأثبت حقيقة علمية مضادة هي أن الذرة تنفت إلى الكترونات وبروتونات ، فلم تعد الذرة إذاً أصغر ما في الوجود ، وما زال العلم يجرى وراء البحث عن طبيعة هذه الألكترونات والبروتونات وهل هي نهاية المطاف في التفتيت أم أنها قابلة لتفتيت آخر أو لأن تصغير شيئاً آخر ؟ ولقد قالت هندسة «إقليدس» بأن الخطين المتوازيين لا يلتقيان بناء على تصور معين فجاءت هندسة الإلاقليديين تضاد هذه المقولة بمقولة أخرى هي أن الخطين المتوازيين يلتقيان بناء على تصور آخر . وهناك الكثير من مستكشفات العلم الحديث ما يناقض ما سبق به الكشف . وصدق الله إذ يقول : « وفوق ذى علم علم » (٢).

والذي لا أشك فيه مطلقاً أن القرآن الكريم كتاب كل ما فيه يستحث العقل البشرى أن يتحرك دائماً بالتفكير وألا يتقف عند حد محدود فيما يستنبط ويستكشف ؛ فدعا إلى دوام النظر والتأمل والبحث والدراسة في السموات والأرض بما تشتملان عليه من مخلوقات : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (٣) ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » (٤). وأشار إشارات

(١) إبراهيم بسبرنى عمرة وفتحي الديب ، تدريس العلوم والتربية العلمية ، الطبعة السادسة ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٢ ، نقل من مصطفى نظيف ، علم الطبيعة : نشوء ورقية وتقدمه الحديث ، مطبعة مصر : القاهرة ، ١٩٢٧ .

(٢) سورة يوسف ، آية ٧٦ .

(٣) سورة يونس ، آية ١٠١ .

(٤) صورة الفاشية ، آيات ١٧ - ٢٠ .

خفية تستنهض المهمة العلمية ألا تتوقف عن البحث والدراسة ، ومن ذلك أنه حكم على علم الإنسان بالقلّة القليلة مهما علا وقاض وأعجب أهله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (١) ، ومعنى ذلك بوضوح هو الدعوة إلى المثابرة العلمية النشطة طلباً للمزيد والجديد ؛ حيث لن يبلغ مجد مهما كانت درجة اجتهاده العلمي إلى شاطئ الاستراحة الأبدية للفكر باستنزاف حقائق العلم والوقوف على نهاياته . ومنه أيضاً ما ذكره تعالى من نظام الأفلاك وأنها ذات مسارات محددة ليكون من وراء ذلك حساب للزمن وتأمّلات علمية في مجال الفلك ، فيقول تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » (٢) . ويقول سبحانه : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (٣) ، ويقول أيضاً : « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ؛ ذلك تقدير العزيز العليم » ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » (٤) . وأمثال هذه الآيات كثيرة وكلها - كما هو واضح - جاذبة لفكر الإنسان أن يعمل ويدرس من أجل الوقوف على معرفة تلك الأسرار الطبيعية والتوانين التي تحكم مظاهرها .

ومن الإشارات المستنهضة للبحث والدراسة قوله تعالى في معرض قسمه بالعظيم من مخلوقاته « والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع » (٥) . أي البحر الموقد كقوله تعالى : « وإذا البحار سجرت » (٦) . أي جعلت ناراً » (٧) . أليس للعلم قولة في كيفية تحول الماء نفسه - وهو أداة لإطفاء النار - إلى نار مستعرة ؟ وإذا

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٥ .

(٢) سورة يس ، آيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سورة يونس ، آية ٥ .

(٤) سورة الانعام ، آيات ٩٦ - ٩٧ .

(٥) سورة الطور ، آيات ٦ ، ٧ .

(٦) سورة التكويد ، آية ٦ .

(٧) ناصر الدين البيضاوي ، تفسير البيضاوي ، أسعد محمد سعيد الدجال واولاده :

لم تكن هناك قولة بعد أليس الحدير بالعقل الإنسانى أن يجرى وراء هذه الحقيقة دارساً منقياً مستكشفاً؟! ومن هذه الإشارات أيضاً قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » (١). قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية : « إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا مافى السموات والأرض فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا ببينة نصبها الله فتمعجون عليها بأفكاركم » (٢)؛ وهو ما يفتح أمام الإنسان صفحة واسعة من متابعة العقل والفكر ليصل إلى كنه الوجود ويتعرف على أسرار خلق الله . وحين يقول الله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » (٣). أفلا يدعو به العقل البشرى أن يبحث ويفتش عن سر الحجز ما بين المائين ، وعن طبيعة هذا الحد والتنافر الذى يؤدى إلى الفجمل بينهما فلا يختاطان ؟ ! ! .

إن أمثال هذه الآيات الملهمة الداعية إلى النظر كثيرة فى القرآن الكريم لو أن علماء المسلمين أعطوها حتمها من التأمل والإنعام الفكرى ، وتابعوا دلالاتها العلمية ، لكان ضم بذلك سبق أى سبق فى مجال الاختراع والابتكار والفكر العميق .

وجملة القول أن القرآن الكريم جعل الكون كله بما فيه ومن فيه طبعاً لفكر الإنسان ، قابلاً للدراسة والبحث والمناقشة للوصول إلى التوازن والنظريات التى تحكم مساره وتفسر طبيعته ؛ دون قيد يوضع على العقول أو حد محدود يلتزم . بل إن إطلاق الحرية العلمية على هذا النحو تعرفاً على أسرار الطبيعة وتعمق خباياها هو المطلب الذى يؤكد القرآن ، ويفرى بالاستجابة له بكل سبيل ؛ لأن به تطمئن القلوب فى إيمانها بربها ، وتزداد اعتقاداً بأزاه تعالى هو الحق الحقيق بالعبادة والخضوع المتعالى عن كل مثل وشبيه ، الحدير

(١) سورة الرحمن ، آية ٣٣ .

(٢) ناصر الدين البيضاوى ، مرجع سابق ، ص ٧٠٦ - ٧٠٧ .

(٣) سورة الفرقان ، آية ٥٣ .

بالخشية والتقى ، ولا عجب فهو الذى يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١).

غاية الأمر أن الله سبحانه وتعالى قد حدد أشياء بعينها مغيبات عن إدراك الإنسان بعيدة عن منال بحثه ، فلا يصح الخوض فيها بالدراسة والتقصي لأنها لن تستجيب كغيرها من محتويات الكون لمقتضيات هذه الدراسة ، ولن يصل الإنسان بعلمه مهما علا وسما وطغى إلى أسرارها ، وهذه الأشياء مذكورة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : « وسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » (٢) ، وقوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيا نمرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك كأنك حنى عنها ، قل إنما علمها عند الله » (٣) ، وقوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » (٤) . . .

ومن ناحية أخرى كان ذلك مطلباً مراداً من الله تعالى كى تتأكد معجزة القرآن العظيمة فى كل زمان ومكان ، وتنقطع السنة القائلين بأنه قول البشر ، ويصح صحة لا شك فيها أنه تنزيل من حكيم حميد . فأنت أيها الإنسان بما فتح لك من باب الحرية العلمية الواسع ، وبما أعطيت من جبروت العقل والتفكير ، وبما توصلت إليه من نتائج تظن أنك لم تسبق إليها ، وعلى الرغم من أن هذه النتائج قد تتعارض مع ما سبقها من نتائج ؛ فسوف نجد أن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً مضت ساء يسأريك ، ولا يختلف معك ، بل ويسبقك وإن كان ذلك بالإشارة المفهمة لا بالتفصيل المفصل على ما وضعناه فيما سبق . ومن من البشر فى استطاعته أن يقول القول فيظل حقاً لا يتطرق إليه شك الباطل فى أى مرحلة من مراحل التطور

(١) سورة ناطر ، آية ٢٨ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .

(٣) سورة الاعراف ، آية ١٨٧ .

(٤) سورة لقمان ، آية ٢٤ .

الفكرى ، وفي أى عهد من عهود البشرية مهما تتابعت السنوات وانقضت القرون ، وتبدلت النظريات ؟ !!! إنه لامراء تنزيل من رب العالمين ، « نزل به الروح الأمين » (١) . وسبحان الله علام الغيوب .

إن القرآن الكريم على الرغم من أنه بعيد كل البعد عن أن يكون كتاباً علمياً على النمط المعروف من الكتب العلمية ؛ إلا أنه لا يمكن أن يضاد حقيقة علمية مستكشفة ولا نظرية استجدت ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وصدق الله إذ يقول : « أفلا يتدبرون القرآن ؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٢) .

وهكذا اختلفت الشرائع باختلاف الأزمان والأماكن والأحوال حتى كانت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث اقتضت حكمته تعالى أن تكون هي الأخيرة ، وأن يكون الدين الإسلامى هو الدين الذى لا يأتى من بعده دين آخر . كما اقتضت حكمته أن تكون هذه الرسالة المحمدية شاملة للإنس والجن على امتداد الأعمار والأجيال وتطور النضج الفكرى إلى ما هو أرقى وأسمى ، وكان على جميع الخلائق أن يتخالوا عن كل ما لا يدعو إليه هذا الدين الحديدى مما سبق به الرسل ، وألا يدينوا إلا لرسوله وتشريعاته حتى الأنبياء السابقون . قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررننا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٣) . ولما كان لا بد أن تلزم

(١) سورة الشعراء ، آية ١٩٢ .

(٢) سورة النساء ، آية ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران ، آيات ٨١ - ٨٥ .

الحجة لله على العباد جميعاً إنساً وجنباً ، في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد حتى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً » (١) . كانت المعجزة الأخيرة إذاً هي القرآن بالمفهوم الذي وضعناه آنفاً .

ومن ناحية أخرى كان لا بد أن يكون هذا الدين الأخير مسائراً كل الأديان السابقة في أصولها ، آخذاً منها أفضل تشريعاتها نفعاً للعباد في الدنيا والآخرة على ما تقتضيه سنة التطور والارتقاء ، وأن يكون في الوقت نفسه أشمل هذه الأديان وأكملها وأبقاها على مر العصور والدهور ، وأعصاها على التغيير والتبدل ، وأرفعها شأنًا فيما ينفع البشر أفراداً وجماعات مهما تبدلت الأحوال وتغيرت الظروف وارتقت المدارك وأتت بالجديد . وذلك ما أنبته الواقع ، وسيظل يثبتته إلى يوم القيامة ، وصدق الله إذ يقول : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنًا عليه » (٢) ، و « هو الذي أرسل رسوله بالهدى والبرهان ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً » (٣) .

• • •

وظائف الدين الإسلامي

للشخص وللجماعة

العقيدة الدينية عنصر أصيل يسائر الطبيعة الإنسانية منذ أقدم العصور ؛ حتى إن الناس عبر تاريخ الحياة الطويل قد مرت بهم أطوار دينية متباينة الاتجاهات مختلفة المشارب ، فحين لم يهتدوا إلى التوحيد عددوا آلهتهم وجعلوا لكل مظهر من مظاهر الحياة لُذاً يدينون له بانتماء وخضوع معين ، وحين وقفت مداركهم قاصرة عن فهم معنى الألوهية الحقنة اتخذوا من مظاهر الطبيعة

(١) سورة النساء ، آية ١٦٥ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٤٨ .

(٣) سورة الفتح ، آية ٢٨ .

آلهة ، فعبدوا الشمس والكواكب والنار والجحش ، ونزلوا إلى مستوى البشر فعبدوا من بينهم أناساً ذوى صفات يجلوونها، بل قد مثلوهم أصناماً تخضع لها أعناقهم ويتقربون بها إلى الله زلفى .

ولقد كانت الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أثناء هذه الرحلة الطويلة للبشرية معالم طريق لهداية الناس إلى حيث ينبغي الخضوع وتبج العبادة ، وتصحيحاً لمعنى العقيدة الدينية في نفوسهم استجابة لطبيعتهم الإنسانية في البحث عن الإله ، ولكن بتدرج مع مستوى حضارتهم الفكرية من أجل أن تصح لهم دنياهم ، ويستقيم لهم مع الدنيا أمر الآخرة . وذلك يدل أصدق دلالة على أن الدين منظم أسامى للحياة ومطلب ملح من مطالب البشر ، يستشعرون أهميته ، ويقوم لهم بتأدية وظائف حيوية لا تكون ولا تسلم إلا به . ونحن حين نتحدث هنا عن وظائف الدين التي تبرز أهميته لحياة الناس إنما نركز على الدين الإسلامى من حيث هو جماع الأديان السابقة والغالب عليها جميعاً والمتناسب تطوراً مع أرقى ما وصل إليه بنو الإنسان من فكر ومعرفة وحضارة علمية وعمرانية وفيما . إلى أهم تلك الوظائف .

تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه

لقد وضعنا في المقدمة التي تحدثنا فيها عن نشأة الدين وتطوره فيما سبق أن الدين ضرورة من ضرورات الحياة ، فإكان الله ليخلق الإنسان ثم يتركه يهيم على وجهه لا يعرف الخير من الشر ويعيث في الأرض فساداً وهو لا يدري . ولعل في حوار الله مع الملائكة حين خلق آدم ما يشير - ولو من بعيد - إلى هذا المعنى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ . قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة

فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون « (١) .

ومن ناحية أخرى لم يخلق الله الإنسان ويعمر به الأرض عبثاً وهدواً « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » (٢) . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » (٣) فهذا المنطق ونحوه فهمنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهداه النجدين وشرع له من الشرائع التي تعاقبت وتوالت وتطورت مع تعاقب الأجيال البشرية تنظيماً لعلاقته بربه ، وتعريفاً بوجوده السابق على كل وجود ، وإحقاقاً لحقه عليه بالذكر والعبادة والتقديس . وإذا صح في الحديث القدسي عن رب العزة أنه قال ما معناه « كنت كثيراً مخفياً ، فأحببت أن أعرف فخلقت خلقي » . فلا شك أن معرفة المخلوق للخالق ذات مقتضيات خاصة ومقدسة تخالف تلك التي تكون بين المخلوق والمخلوق . فالإنسان يعرف الإنسان ليتبادلا النفع والعون في الشدائد والملمات وليتشاركوا في السراء والضراء ؛ فيعطيه ما عنده وما يقدر عليه ، ويأخذ منه ما ليس عنده وما لا يستطيعه ، ويساعده إن احتاج إلى مساعدة ، ويستعين به إن أملت به ضائقة تحتاج إلى سواعد الرجال ، ويخفف عنه المصيبة - إن حلت - بمواساته ، ويستزيد به سروراً إن مسته يد السرور ، ثم يتوقع منه مثل هذه وتلك في مثل الظروف المصاحبة ، وذلك من شأنه أن يجب الحياة إلى الأحياء من بني الإنسان ، ويجعلها معروفة الدرب مأمولة الخير مأمونة الجانب . ولكن الله الغني عن كل ما يملك خلقه لأنه واهبه والمبرأ من نقص الاحتياج إلى أي مخلوق لأنه خالقه ؛ إذا أحب أن

(١) - سورة البقرة ، آيات ٢٠ - ٢٢ .

(٢) - سورة الانبياء ، آيات ١٦ ، ١٧ .

(٣) - سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

يعرفه خلقه فإنما ذلك بأسلوب آخر يتمثل فيما يجب على العبد نحو سيده ،
والضعيف نحو القوى ، والمملوك نحو المالك ، والدليل نحو العزيز ، والمحتاج
نحو من لا يستغنى عنه . وطبيعي أن ينتظر الخاق - بما هو عليه من عبودية
وضعف وذلة وخضوع واحتياج - أوامر الخالق العظيم بلا حدود وما يريد منه
لتم معرفته به على نحو رضيه هو . ومن هنا كانت تشريعات الله لعباده في
ظل الأديان السماوية كلها، وتنظيماته المحققة لحسن العلاقة بين الإنسان وربه
متشكلة كلها في معنى واحد أشار إليه سبحانه في آية قرآنية جامعة هي .
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن
يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) .

ولقد فصل الله سبحانه وتعالى العبادة التي يريد بها من خلقه على لسان رسله
الكرام مما كان واحداً في جوهره مختلفاً في بعض تفصيلاته من رسول إلى رسول ،
ومن طور في البشرية إلى طور آخر فيها على غرار ما ذكرناه في المقدمة (٢) .
ولست هنا بصدد الحديث المفصل عن تلك العبادات لا في الأديان السابقة
ولا في الدين الإسلامي؛ إذ مجال هذا التفصيل هو كتب الفقه وغيرها من الكتب
المتخصصة . ولكني أحب هنا أن أنبه إلى شيء واحد هو أن الإسلام في
تشريعاته للعبادات المطلوبة من المسلمين تنظيماً لصلاتهم برهم لم يقتصر - كما
يتبادر إلى الذهن - على تلك الأمور الروحانية الصرفة من مثل « شهادة أن
لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان
وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ومن مثل بيان الحلال والحرام ؛ وإلا لكان
قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . . » دعوة مباشرة إلى
الرهبانية والتبتل والانقطاع لمثل هذه العبادة الروحية دون السماح بتصريف أمور
الدنيا وهو يتعارض مع آيات كثيرة في القرآن ، وتعالى الله أن يكون في قرآنه

(١) سورة الذاريات ، آيات ٥٦ - ٥٨ .

(٢) راجع المقدمة من ص ٢٧٦ - ٤٠١ .

اختلاف وتعارض ، وإنما جعل الإسلام - رحمة بالمسلمين - كل تصرفات الناس عبادة إن هم أرادوها على هذا النحو ، سواء منها ما هو متعلق بشئون الدنيا أو بشئون الآخرة ، ذلك لأن الله سبحانه هو الذى دعا إلى هذا كله وأمر به أن يكون من عمل عباده ، وما كان له أن يأمر بشئ أو يدعو إليه وهو بعيد عن مجال تنظيم الصلة بينه وبينهم . فهو الذى دعا الناس أن يمشوا فى منابك الأرض ويأكلوا من رزقه ، وهو الذى دعاهم أن يبحثوا ويدرسوا بالنظر فى السموات والأرض ، وهو الذى دعاهم أن يستمتعوا بما خلق لهم من طعام وشراب وزينة ورباش ولباس ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوا الدين إذا استدانوا وأن يرتبوا به إن لم يتييسر لهم الضمان بالكتابة ، وحثهم على التجارة والتعلم وغير ذلك من الأمور الدنيوية العديدة ، ولكنه فى الوقت نفسه نظم هذه الأمور الدنيوية كلها لهم على نحو يربطها بتقوى الله وعبادته ، فمن أرادها عبادة لله قصدتها فكانت كذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن ثم كان اكتساب المال من طريق حلال عبادة ، وكان الإنفاق بلا إسراف أو تقتير عبادة ، وكان السعى على العيال وإغنائهم بلا جنوح إلى المحرمات عبادة ، والتحدث بنعمة الله دون فخر أو تعال عبادة ، وهكذا . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يغرس المسلم غرساً فى أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة (١) » . والكلمة الطيبة صدقة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » (٢) . والصبر على المصيبة صدقة - حتى الشوكة يشاكها المرء فتؤله فيدخر ذلك احتساباً عند الله صدقة :

(١) الشيخ منصور على ناصف ، المتاج الجامع للأصول لى أحاديث الرسول ، الجزء الثانى ، دار النكر : بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٠ .
(٢) سورة ابراهيم ، آيات ٢٤ ، ٢٥ .

« ولنبأونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٢) . « ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (٣) . والإنسان يأكل ويشرب ويتزوج ويتناسل ليكون هو مسلماً قوياً : « والمسلم القوى خير من المسلم الضعيف » ، ودينى مجتمع المسلمين فيهرب به عدو الله وعدوهم ؛ كل ذلك ضروب من عبادة الله .

وهكذا كل عمل تتصوره ذنباً هو لك عند الله حسبة إن قمت به على الوجه الذى أراد الله منك . ولكن إذا جازبت به حدود الله ولم تقصد به رضاه فقد أغفلت جانباً كبيراً مما يجب عليك نحو نفسك ، وما كان بإمكانك أن تعتمد من الله تعالى إضافة ممتازة إلى كشف حسابك الذى تعبر به الحياة الدنيا نفساً راضية مرضية فتدخل فى عباد الله وجمته يوم القيامة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٤) . « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » (٥) .

إسعاد الإنسان فى حياته الدنيا

لقد جاء الدين الإسلامى بتشريعاته وتعاليمه لا ليصل الإنسان بربه فقط . ولكن ليصله كذلك بحياته الدنيا . وبكل ما فيها من مظاهر وأحوال ، بازيماً هذه الصلة الأخيرة على أسس تفيض بالخير وترسى دعائم السعادة الحقيقية

(١) سورة البقرة ، آيات ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) سورة المائدة ، آيات ٢ ، ٣ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٤١ .

(٤) سورة الزلزلة ، آيات ٧ ، ٨ .

(٥) سورة يونس ، آية ٤٤ .

والرفاهية الإنسانية ، والعيش في سلام وطمأنينة وراحة بال ، ومن ثم وضع له قانوناً أخلاقياً متميزاً ، وحدد له واجبات إنسانية يلتزم بها ، ومن له مجموعة من القيم الاجتماعية التي تهديه في سلوكه إلى ما يحقق له هدف السعادة في حياته الدنيا .

فالإسلام يعلم الناس الأدب أرفع الأدب في أمور حياتهم ، إنه يعلمهم مثلاً كيف يتوادون ويتزاورون ويتعاونون ويتصل بعضهم ببعض دون أن تحدث إساءات للنفوس ، ودون أن ينقل أحد على أحد ، أو أن يكون في ساوكة الاجتماعي هذا منفراً . انظر إليه يرسم السلوك المهذب الرشيد حين يزور الناس بعضهم بعضاً ؛ فليس لأحدهم أن يقتحم بيت غيره فجأة أو بلا استئذان أو حتى بغير استئذان رقيق ، بل بسلام على أهل البيت ، واستئذان في الدخول إن كان ثمت من يأذن له ، وإلا رجع حتى لا يقع على عورة في البيت ، أو لا يظن به الشر والإفساد . اللهم إلا إذا كان المكان الذي يراد دخوله من الأماكن العامة كحوانيت التجارة ونحوها مما يفترض من أهلها وأصحابها الإذن العام لكل داخل قضاء للمصالح وتبادلاً للمنافع . « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ؛ ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (١) ، ثم هناك أوقات للراحة والاسترخاء وعدم التهيؤ لملاقاة الزائرين بالتحفظ في ستر العورات مثلاً أو الاستعداد باللبس اللائق ؛ فأولى بها ألا تكون وقتاً للزيارة لأولئك الذين تصح مخالطتهم ولغيرهم من باب أولى ؛ اللهم إلا إذا اقتضت الضرورة فيلزم الاستئذان حتى من أقرب المقرين ؛ « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا

الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ؛ ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض » (١) .

وهذه لفظة أخرى من الأخلاق السامية التي أدب بها الإسلام أهله ؛ إنه ينهى عن أن يسخر أحد بأحد ، أو أن يفتابه ، أو يتتبع عوراته ، أو يظن به السوء ، أو يدعوه بما يكرهه من الأسماء والألقاب . ولقد كان بالغ العنف في النهي عن ذلك ، مع جمال التأتى وحسن المدخل إليه ؛ حتى إنه في معرض الحديث عن بعض هذه السيئات الاجتماعية ألصق بمن فعلها عار فحشها وقبيح سيئها ؛ « يأبها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأبها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ؛ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » (٢) .

وهذه أخرى من تهذيب الإسلام للسلوك الإنساني وطبعه بطابع الخلق الكريم ؛ إنه يحث على إنهاء الخصومات ، وغرس المحبة والإخاء في النفوس ، وبضيق الخناق على التباغض والحسد والنفور والكراهية بين الناس ؛ فيدفع بعضهم أن يشمروا بالآلام بعض فيخزنوا لتخفيف تلك الآلام حتى تستل من بينهم الأحقاد وتموت في أجواءهم العداوات ، ويقوى الجميع بالجميع ؛ ويستجيبون لقول ربهم « واعتمموها بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا » (٣) . وأي شيء أقوى في خالق هذه الروح من دعوة الإسلام إلى إصلاح ذات البين بين الجماعات والأفراد بالتوسط الحميد لإنهاء خلافاتهم : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصاحرا

(١) سورة النور ، آية ٥٨ .

(٢) سورة الحجرات ، آيات ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ .

بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتوا التي تبغى حتى تنفي عنى إلى أمر الله ، فإن فاعت فأصاحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصاحوا بين أخويكم» (١) . ، « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يمدحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تمسوا وتمسوا فإن الله بما تعملون خبير» (٢) ، « وإن ختم شقاق بينهما (٣) فابعدوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما» (٤) .

وفي سبيل التضامن والتحاب وخلق روح المودة بين الناس يدعو الإسلام إلى التثبت قبل الاتهام ، « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق فنبأ فنبئوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتمسحوا على ما فعلتم نادمين» (٥) . « وفي ذلك أيضاً يدعو إلى حسن الحوار وصلة الأرحام والبر بالوالدين . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبني القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب والمصاحب بالجنب» (٦) .

ويعتزل الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ، « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه» (٧) . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : من بات شعبان وجاره جائع » . وفي هذا المعنى يدعو الإسلام إلى المتخاطب بخلق الأمانة ، والعدل ، وحب الخير للناس ، ومعاملتهم بالحسنى ، وعدم التعرض لهم بما يكرهون حتى ولو كان دعوة لخيرهم . والآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا تحصى ولا تعد في هذا الصدد .

-
- (١) سورة الحجرات ، آيات ٦ ، ٤ ، ١٠ .
 (٢) سورة النساء ، آية ١٢٧ .
 (٣) بين الزوجين .
 (٤) سورة النساء ، آية ٣٤ .
 (٥) سورة الحجرات ، آية ٦ .
 (٦) سورة النساء ، آية ٣٥ .
 (٧) بوائقه أى شروره .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإتياء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (١) ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ؛ إن الله نعمًا يعظكم به » (٢) . ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » ، ويقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » (٣) . « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (٤) . « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد » (٥) . وفى معنى الجادلة الحسنة التى تحبب ولا تنفر قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » (٦) . وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٧) . استنكاراً للإكراه ، وقوله كذلك « قل يأبى الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » (٨) . إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى الإخاء بين الناس ، وبذر بذور المودة والتعاطف بينهم ، وممارسة سلوك المجاملة حتى مع غير المسلمين من أهل الكتاب أو الكافرين .

ثم أليس فى تحريم الربا وأساسه استغلال معاناة المحتاجين وعوز المعوزين - ما يدعو إلى التسليم بأن الدين الإسلامى قائم على الرحمة بالناس والعطف عليهم وتخفيف العنت عن كواهلهم وتقريب بعضهم من بعض نفساً وروحاً حين

-
- (١) سورة النحل ، آية ٩٠ .
 (٢) سورة النساء ، آية ٥٧ .
 (٣) سورة النحل ، آية ١٢٥ .
 (٤) سورة نصلت ، آية ٢٤ .
 (٥) سورة العنكبوت ، آية ٤٦ .
 (٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .
 (٧) سورة يونس ، آية ٩٩ .
 (٨) سورة الكافرون ، آية ١ - ٦ .

بتعاونون في الشدائد دون استغلال ، ويأخذون بأيدي الفقراء منهم دون أن ينقلوا
كواهلهم ، فيرتد ذلك رضا في النفوس وتفانياً في النصرة الجماعية ومحافظة
لمنحاصه على الأموال والأرواح والأعراض وسعادة للفرد والمجتمع . وانظر إليه
تعالى يجعل إقراض الناس إقراضاً له وينصب من نفسه آخذاً للصدقات ،
« من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ؟ » (١) . « ألم
يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » (٢) . إنه لأسلوب
يهون على الإنسان كل ماديات الحياة ؛ ومن ذا الذي يعزف عن إعطاء الله
ويستظر منه أعظم رد لما أخذ وأكرم وفاء بما قبل منه ! ! إنه لخلق قويم وأدب
رفيع في تعامل الناس شرعه لهم الإسلام ليكونوا بنعمته إخواناً أصفياء وأصدقاء
متحابين .

وهذا شأن آخر من شؤون الآداب السامية التي أدب الإسلام بها أتباعه
حتى يعيشوا سعداء فيما بينهم ، يتبادلون الاحترام والمحبة ؛ ذلك هو التواضع
وعدم التعالي والتكبر على الناس بجاه أو بمال أو بسلطان ، فقد جعله الدين
الإسلامي من أعظم القيم وأسمى الأخلاق ، ودعا إليه بحمارة وقوة حين جعل
« الناس سواسية كأسنان المشط » ، لا فرق لعربي على عجمي ولا لأبيض على
أسود إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق » ، وحين ذكروهم بأصلهم الواحد أبا وأما ،
وبالتراب ثم النطفة التي هي أصل منشئهم جميعاً ، حتى يعلموا أن من كانوا
بهذا المعنى إخوة لا يحق لأحدهم أن يدعى على الآخرين علواً في الأرض ،
ولا يستقيم له أن يزهو « بأصله وفضله » فيجعله أساساً لمفاضلة أو قاعدة
الانطلاق إلى التكبر ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، « يا أيها الناس إنا
خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٤ .

أتقاكم» (١)، فليس التشعيب والتمزيق في الأسم والقبائل والممالك إذًا مدعاة لرفعه قوم على آخرين، وإنما هو من أجل كمال التعارف. فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق؛ يخرج من بين الصلب والترائب» (٢). ثم انظر إلى هذا التآني الرقيق في الدعوة إلى خلق التواضع في النفوس حين يقول الله تعالى في كتابه الكريم: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» (٣). «ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا؛ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها» (٤)، وفي حكاية القرآن الكريم عن لقمان حين يعظ ابنه: «ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا. إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (٥). «إنه لا يحب المتكبرين» (٦) «فلبس مثوى المتكبرين» (٧)، وهذه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تأخذ هذا المسار نفسه «من تواضع لله رفعه»، «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، وقول عمر رضي الله عنه حين أمر بزد الظلامنة عن أحد الرعية والقصاص ممن ظلمه وهو ابن عمرو بن العاص حاكم مصر في عهده «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا». ياله من إسلام كريم في أخلاقه، لطيف المدخل إلى ما يدعو إليه من قيم، مهذب الكلم فما يستل به من النفوس صلفها وعجرفتها؛ فتلين مجبولة على الاحترام وحسن المعاشرة.

وبغض النظر عن أن يكون نظر الرجل إلى المرأة ونظر المرأة إلى الرجل مدعاة للفسق والوقوع في الخطيئة؛ أليس ذلك خلقاً اجتماعياً سيئاً تأباه إنسانية الإنسان. أليس يضايقتك أن تسير في الطريق فترى العين تكاد

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) سورة الطارق، آيات ٥ - ٧.

(٣) سورة الفرقان، آية ٦٣.

(٤) سورة الاسراء، آيات ٣٧، ٣٨.

(٥) سورة لقمان، آيات ١٨، ١٩.

(٦) سورة النحل، آية ٢٣.

(٧) سورة النحل، آية ٢٩.

تأتمك بنظراتها؟ أو أن تكون زوجك أو إحدى قريباتك في مكان أى مكان فتتعلق بها الأبصار بفضول سخيف؟ ألا ترى معي أنك في بعض الأحيان تكادهم بحمئة من تراب تنثرها في وجه هؤلاء الناظرين حتى يغضوا من أبصارهم وينصرفوا عن فضولهم؟ إن هذه حال سيئة وخلق ذميم إذا شاع في المجتمع أشاع فيه ضيق الناس بعضهم ببعض وكراهة بعضهم لبعض، وبعد بعضهم عن بعض. وعند ما يزداد الطين بلة فت في عضد المجتمع وسلب منه روح التماسك الذى يقرده إلى عزته وكرامته. ولقد سائر الدين الإسلامى تلك الطبيعة الإنسانية؛ فدعا الناس رجالا ونساء أن يقلعوا عن تلك الرذيلة، ويلتزموا بفضيلة غض البصر: «قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم. إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن...» (١)، «وَيَتَوَكَّلْ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بَدَّ مِنْ سَجَالِنَا؛ تَنَحَّثْنَا فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» (٢).

هذا ولنا بصدد أن نحصى كل ما يسعد الفرد والمجموع مما شرعه الإسلام أخلاقاً عالية وفضائل سامية، وقها إنسانية محمودة؛ لأنه هذا مما يعجز الفرد عدلاً. فالإسلام في جملته قائم في كل ما شرع للعباد وأوجب عليهم على الفضائل والمثل العليا والتعامل المهذب الرقيق. وما التعاون على خير الناس، والصفح عن المسامات، وكمجان الغيظ وامتلاك النفس عند الغضب، والغفر عند المقدرة، وإحساس الناس بالناس في السراء والضراء مجاملة ومواساة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واحترام الصغير وتوقير الكبير، والسماحة في البيع والشراء والاقتضاء، والوفاء بالعهود...؛ إلا أمثلة قليلة من بحر خضم لا يسبرغوره إلا من عرف حقيقة الإسلام ذلك الذى عبرت عنه عائشة حين

(١) سورة النور، آيات ٢٠، ٣١.

(٢) الشيخ منصور على ناصف، مرجع سابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها « كان خلقه القرآن » .
وذلك كله من أجل أن يستمرىء الإنسان طعم الحياة ؛ سعيداً كريماً في نفسه
وفي الناس أجمعين .

ولست في حاجة إلى أن أؤكد أن هذه الآداب السهجة وتلك الأخلاق
العالية وأمثالها مما قام عليه الدين الإسلامى وشرعه قانوناً اجتماعياً للناس ؛ تفعل
الكثير والكثير جداً - لو أنها شاعت وتمسك بها المسلمون - في تقريب ما بين
الناس . وتوحيد أهدافهم ومصالحهم ، وتوثيق عرى التضامن والأخوة بينهم ؛
تلك التى تفتتت على صخرتها العاتية معاول الأعداء الهدامة ، ومحاولات الكائدين
المدمرة ، ويرتد عنها وبها كل من يريد النيل من الإسلام خائباً مدحوراً ؛
فيعلم مجتمع المسلمين شامخ الهامة ، وموفور الكرامة ، مهيب الجاناب ، منصوراً
في كل أمل يطمح إليه ويسعى إلى تحقيقه ، بعيداً عن التنازع والتناحر الذى
يؤاخيه الفشل ويواكبه الضعف والاستكانة ، وصدق الله إذ يقول : « ولاتنازعا
فنفشلوا وتذهب ربكم » (١) . « واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ،
فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (٢) .
وما كان ذلك ليكون لولا هذه المثل الأخلاقية البينة التى تفتح بنابيع الخير
في المجتمع ، وتجري بها أنهار الدماء والسلاسة والصفاء بين أفرادها .

هذا ولم يغفل الإسلام في سبيل إسعاد المسلم أن يضع له في إطار من
الحكمة البالغة قوانين وقواعد تحكم جميع معاملاته الدنيوية ، وتنظم ما يحتاج إليه
من تصرفات وسلوك في دنياه ، كالبيع والشراء والارتمان والمضاربة والاستثمار
والاتجار والقضاء بين الناس والعمقوبات على الجرائم وغير ذلك مما تقتضيه أمور
المعيشة وما لا يمكن الخوض في تفاصيله هنا . ولكن يكفى أن نقول إن كل

(١) سورة انفال ، آية ٦٦ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

(ومن هذه النعمة لا شك تلك الاخلاق السامية التى صدتها للناس شرمة وسماجا .)

هذه التشريعات المنظمة للحياة الدنيا قد وصفها الحكيم الخبير الذي يعلم ما يصلح النفوس التي خلقها وما ينسدها ؛ فجاءت تامة الأركان لا عوج فيها ، ولا شك في تحقيقها لسعادة الأفراد ؛ يشهد بذلك الواقع الملموس عند تطبيقها ونتائج البحوث والدراسات الحديثة التي جاءت مطابقة لأحكامها .

علاج الأزمات النفسية للأفراد

كان من الممكن أن يدخل علاج هذه النقطة في الكلام عن وظيفة الدين السابقة وهي : « سعادة الإنسان في حياته الدنيا » لولا أنها ذات أهمية بارزة بين وظائف الدين الإسلامي مما يقتضينا إفرادها بقول خاص .

فلو أننا أنعمنا الفكر في قول من يقول بأن حياة كل فرد تنتهى بموته ، وأنها الطبيعة فلا آخرة تآنى ، ولا حساب يقام ، ولا عقاب على ذنب يرتكب ، ولا ثواب على إحسان ينجز ؛ لأدركنا أن حياة الإنسان على هذا الكوكب سوف تمتلىء بكل ما ينغصمها ويثقل أحمالها على الأحياء من نبي البشر ، ولكانت حياة شبيهة بحياة البهائم والسباع يأكل فيها القوي الضعيف ، وينهب القادر العاجز ويستغله لقضاء مصالحه الشخصية ، ويدافع غيره بالمنكب القوى ليأخذ منه ما يأخذ عنوة واقتداراً . وما الذى يمنعه من ذلك وهو يعلم أن ما يعمل لا يوزن عليه بميزان العدالة المطلق ، ولا يوضع في حساب من يعزبه عن علم ويقين إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وإذا قيل إن القوانين الوضعية التي يشرعها الناس لأنفسهم حاكمة لتصرفاتهم ومحددة لكل فرد حدوده تتكفل بمنع الموبقات والمنغصات من مثل استغلال العاجزين ، ونهب الضعفاء ، وتحقيق المصالح الفردية بالغلبة والقهر والافتئات على الناس ، ومن ثم تخف الحياة على الأحياء ، وتظلمهم فيها السعادة ؛ فأنا أقول : إن هذه القوانين وإن ضبطت التصرفات الإنسانية بعض الضبط إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون مظهرأ خالياً

من المضمون والجوهر ، وبخاصة إذا كان الفرد يعلم أن كل سلوك مرهون بنظره الخاصة التي يصطنعها هو ويأتمقها ويحتمل بها على تلك القوانين الصماء التي لا تنفذ إلى أغوار النفوس لتعلم ما فيها ، ولا تستطيع أن تسيطر على القلوب فتقف على تدبيراتها الخفية وهواجسها المنحرفة . وكم سمعنا عن براءه حكم عليهم القانون نفسه بالعقوبات الصارمة ، وكم عرفنا عن حق ضاع لأن بعض الناس ألحن بحجته من بعض ، وكم جار جائر في حضرة القانون ، وكم مات أناس بحسرة ما ضاع منهم ظلماً وعدواناً دون أن يقدر القانون على استرداد ما ضاع منهم ، وما أكثر ثمة نسمع عن ديكتاتوريات ممتعة في سبلاد من العالم تفر القوانين وتميل بها حيث يميل هواها ، وتحكمها في رقاب الأذلاء دون أن يكون لها عندهم صوت مسموع ؛ حتى إذا جاءت ساعة موالية تبدلت الحال ، وتغيرت الموازين ، وتغلب شر على شر إلى أن تحين ساعة أخرى . فنن لهُؤلاء جميعاً يرد ظلامتهم ويتصف ظلومهم ؟ ! ! إن النتيجة المحتومة لهذا كله هموم متلاحقة للبشر تعصف بهم عصفاً ، وتوردهم موارد الملكة والبوار ، فلا ينجو من ويلاتها قوى أو ضعيف ، ذليل أو عزيز ، جائر أو مجور عليه . وبمعنى آخر تختفي السعادة الحقيقية من الحياة ، وتكثر فيها الأزمات النسبية العنيفة التي تستعصى على الإزالة أو حتى على التخفيف ، فتضحي مدمرة يموت بها صاحبها دنفاً سقيماً مغلوباً على أمره . وما حوادث الانتحار التي نسمع عنها كثيراً إلا صوت هذا الواقع المر في الناس ، وصدى معاناتهم من ويلات الحياة الدنيا التي لا يجدون لها عن أنفسهم دفعاً ، كما أثبتت التحقيقات الرسمية في كثير من حوادث الانتحار .

وكل هذا يحدث عند غياب الاعتماد بوجود المطلاع على الصغيرة والكبيرة ، العالم بالسر والعلن ، العادل المطلق الذي لا تخفى عليه شاردة أو واردة ، المحاسب على العظيم والقظيم فلا يتد عن حسابه مثقال ذرة من عمل في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .
ولكن تعال معي أيها القارئ الكريم نبحت الأمر في ضوء ما نعرف عن

الدين الإسلامى وتشريعاته . إن هذا الدين يدعو المسلم أن يؤمن من ناحية بأن هناك يوماً للحساب الدقيق هو يوم القيامة أخفى علمه عن الناس لاستكمال معنى الابتلاء والاختبار من الله للناس ، ومن ناحية أخرى لا يقوم على هذا الحساب قانون من صنع إنسان خطاء . ولا دستور ينفذه عاجز عن معرفة سرائر الناس وأحبايل الخداع التى ينسجون، وإنما ينصيه ويدبر أمره رب العالمين الذى «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» (١) ، والذى يواجه الإنسان بعمله الظاهر والباطن بكل الدقة والأمانة ، ويلزمه الحجة الدافعة التى لا يجد أمامها إلا أن يقول: « يا ويلنا إذا كنا ظالمين » (٢) ، «ربنا إنا أظلمنا وكبرنا فأصلحنا السبيل» (٣) . وأى إنكار يجدى ؛ وأى خداع ينفع ؟ وأى تهرب من جريمة يقبل ؟ « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٤) . « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ » (٥) ، وإذا فن آمن بالإسلام ديناً لا يسعه إلا أن يكون صادقاً مع نفسه وربه حتى لا يضل سعيه فى الحياة الدنيا ويحكم عليه بالثبور فى الآخرة . ومن هنا تكون الآخرة أمل العاجز عن رد ظلامته فى الدنيا ، ومتطلع المهضوم المغلوب على أمره كى ينتصف من ظلمه فى دار الخيل والأباطيل .

وما دامت الحال هى هذه الحال فلا هم ولا حزن يجريان بين الناس من جراء ظلم الإنسان للإنسان ، ولا عقد نفسية مردية تؤود من لم يستطع أن ينتصف لنفسه فى الحياة الدنيا ، ولا حسرة ولا سقم يتوء بهما كاهل العاجز عن أخذ ثأره فى دنياه ؛ ذلك لأن الدنيا ليست نهاية المطاف ، وما فات فيها متدارك فى حياة غيرها هى الحياة الآخرة ؛ فلن يفلت ظالم بما ظلم ، ولن يختمى سارق بما سرق ، والله للجميع بالمرصاد بثأر للمظلوم من الظالم بما يرضيه ، ويرد

(١) سورة غافر ، آية ١٩ .

(٢) سورة الانبياء ، آية ٤٦ .

(٣) سورة الاحزاب ، آية ٦٧ .

(٤) سورة النور ، آية ٢٤ .

(٥) سورة نصلت ، آية ٢١ .

الحقوق المغتصبة لأهلها بما يجعلهم يتمنون أن لو كانت لهم حقوق أخرى مغتصبة . ومن ثم تهون على الناس المصائب ، وتنحطم أزماتهم النفسية ، ويسخرون من النكبات والأهوموم ؛ لأنهم يستطيعون أن يلتقوا بها في أتون خاص يبدل لهم أحزانهم مسرات ، ويضيف إلى معطيائهم الخيرة الشيء الكثير ، ويستزيد من مدخراتهم الطيبة عند الله « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (١) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون من المفاس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار . قال : المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج وقد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، حتى إذا لم تبق له حسنات أخذ من سيئاتهم فألقيت عليه فكب بها في النار » ، أو كما قال .

والمسلم يعلم - بحكم ما عرف من دينه - أنه مبتلى بالشدائد والمحن « وتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » (٢) كما أنه مبتلى بالنعمة من بحبوبة العيش وكثرة المال والولد : « وتبلونكم بالشر والخير فتنة » (٣) . « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (٤) . ويعلم أيضاً أنه إن صبر في الضراء وشكر في النعماء فله عقبى الدار ، وإن كان غير ذلك فعليه اللعنة وله سوء الدار . وإذا فهو على أية حال أمامه الفرصة أن ينال الحسنى ، ويحصل على الخير والسعادة « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (٥) « وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » (٦) . وحينئذ فالهم والحزن في الدنيا - بهذا

(١) سورة الشعراء ، آية ٨٨ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٥٥ .

(٣) سورة الانبياء ، آية ٢٥ .

(٤) سورة الانعام ، آية ١٦٥ .

(٥) سورة البقرة ، آيات ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٦) سورة ابراهيم ، آية ٧ .

الأسلوب في السلوك — مدخر له سعادة في الآخرة . وهو بهذه الحكمة البالغة يرضيه الفقر إن أصابه مهما اغتنى من حوله الناس ؛ لأنه بطاعة الله وامتنال أوامره شعبان ، ولا تجزعه المسيية جزعاً يفتح له باب الهروب من الدنيا بالانتحار مثلاً ، أو يزرع في نفسه الحقد على غيره ، أو يحرك الثورة في قلبه على ما هو فيه فيفسد في الأرض أو يكيد لغيره من المظالمين السالمين ؛ لأنه على يقين أنه بما عند ربه له غير خاسر ولا مغبون . وهو بهذه الحكمة الحكيمة لا يبطره الغنى وصلاح الحال فيطنى بهما على غيره من عباد الله ؛ لأنه يعلم إن كان قد أدى شكر النعمة عليه ونجح في الامتحان فهو ينتظر على شكره الثواب ويأمل في نعيم مقيم .

إن الإنسان يعيش سعيداً بالأمل ، فإذا فقد الأمل في هذه الحياة المادية وجد الأمل — إن كان مسلماً — في حياة الروح ، حياة الآخرة ، حياة الإسلام الذي وعد الصابرين من أهله على شدائد الدنيا ومصائبها وكرهها ومضايقاتها الأجر بغير حساب « إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) . أما أولئك الذين يقولون : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (٢) ، فهم في دنياهم — إن أصابهم الشر — آيسون . وقد لا يجدون مخرجاً من آلامهم إلا بتوديع تلك الدنيا التي كانت كل آمالهم ففقدوا فيها الأمل ، ولم يروا بعدها بعداً يتكفل بكل مشاكلهم فيسوا أن يجدوا لمشاكلهم حلاً . ولا أدل على صدق هذه القضية من كثرة الانتحار بين الأغنياء ومن يعدهم الناس سعداء بما يملكون ، بل لقد نسمع أن أعظم الناس شقاء في دنياهم هم أصحاب الحظ العظيم من الروة والجاه والسلطان ؛ حيث لم يغنوا حتمية بغناهم ، ولم يسعدوا فعلاً بما أوتوا من سلطان وجاه ، ورائت عليهم الموم والآلام التي تعظم بعظم الغنى والسلطان سنةً لندنيا الناس لن تجد لها تحويلاً ؛ فكانت أقوى من كل

(١) سورة الزمر ، آية ١٠ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٢٤ .

مادة وأعتى من كل جبروت . ولن يكسر من قوتها ويضعف من ساطتها إلا أمل في حياة خالية من المموم والآلام ، وذلك ما يوفره الإسلام بشرعه الحكيم .

وبهذا التدبير الحكيم يرضى كل إنسان بما عنده وما قسم له ، وتنصلح النفوس وتنسجم الحياة ، ويسعد بها البشر مهما قست عليهم : خاصة وأنه ليس في الإسلام باب مغاى أمام العبد — إذا انزلت قدمه وخرج عن طاعة الله — أن يرجع إلى ربه مرة أخرى ويتوب فيقبل الله توبته ويدخله في رحمته ، حتى أولئك الذين زادوا وجاوزوا الحد في المعصية والظغيان لهم مكان في رضوان الله ، ومن ثم فلا داعى إطلاقاً لأن يتعقد شخص فيهرب من دنياه ، أو ييأس فيكره الحياة ، أو تتابه الأزمات النفسية الثقيلة قنوطاً من عيشه المقدور « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (١) . « إنما التوبة على الله الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم » (٢) ، « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحماً » (٣) . « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » (٤) .

وهل يغير هذا يطمئن الناس إلى مقدراتهم وهم — لا محالة — مختلفون فيما قدر لهم كى يعمر الكون وتستمر الحياة ؟ وهل يغير هذا تموت الأزمات النفسية ويستريح الناس من شر ما تفعل بهم ؟ وهل يغير هذا يستكمل الإنسان سعاده في دنيا كلها نصب وتعب وإرهاق وقلق « ولقد خلقنا الإنسان في كبد » (٥) ؟ . وهل يغير هذا تنمحي الشرور ويجم السلام بين الناس ؟ . وهل يغير هذا يتوى الضعيف ، ويعز الدليل ، ويعفى الفقير ، ويسلم ذو البلية ؟ .

(١) سورة الزمر ، آية ٥٢ .

(٢) سورة النساء ، آية ١٧ .

(٣) سورة الفرقان ، آية ٧٠ .

(٤) سورة هود ، آية ١١٤ .

(٥) سورة البلد ، آية ٤ .

وهل بغير هذا تنصلح حال البشرية وتشفي النفوس المريضة ؟ وهل بغير هذا يدوم للكون نظامه إلى يوم يعثون ؟ وصدق الله إذ يقول : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (١).

نهضة المجتمع وقوة بنائه

تقوم المجتمعات العظيمة دائماً على أسس ثلاثة هي :

(أ) القوة الدفاعية والاستعداد العسكري الذي يقف في وجه الظالمين ، ويتنصر على من ينتهك حرمة الوطن ومقدساته .

(ب) النهضة الاقتصادية التي توفر للفرد احتياجاته ، وتكفي المجتمع مؤنة القيام بالمشروعات الصناعية والزراعية والعمرائية والاجتماعية التي تسمه بالرفاهية ، وتحقق له أهدافه دون الاعتماد على غيره من المستغلين مما يوقعه حتماً في شركهم ويحرمه الاستقلال الحقيقي .

(ح) التربية السليمة لكل أفراد المجتمع بما يجعلهم لبنات صالحة يقوى بها بنيانه ، ويرتفع صرحه ، ويستعصى على معاول الهدم ، ويتنصر على كل صموية تعوق مسيره الحضارية .

والدين الإسلامي لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً في ترسيخ هذه الأسس ووضع التشريعات المناسبة لها والقواعد التي تحقق أهدافها . وفيما يلي نتناول هذه الأسس الثلاثة بشيء من التفصيل .

القوة الدفاعية في الإسلام :

وضع الإسلام للمجتمع مجموعة من القواعد والمبادئ في صدد القوة الدفاعية

ما ينبغي ألا تغيب أبداً عن أعين المسلمين وجهودهم الصادقة . وأول هذه المبادئ وعلى رأسها جميعاً الاستعداد الدائم بما يخيف الأعداء منهم ، ويعلمهم دائماً على حذر من بطشهم إن هم أرادوهم بسوء . ومن ذلك ما دعا إليه القرآن الكريم من أخذ العدة والتخطيط لملاقاة الأعداء بمنتهى العزم والحزم وبكل ما يضمن النصر ويحقق لهم الغلبة ؛ فقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) . ولا شك أن الإعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف الظروف والأزمان والأحوال ، فليس هو اليوم كما كان عليه في عهود غبرت ، وكما يكون عليه في ظروف وأزمان تقبل . ومن ثم يحتاج الإعداد السليم إلى تخطيط حكيم حيث إن أمر الحرب اليوم وغداً من التعقيد بما لا يسمح أن تتركب الأهواء مطايا إليه ، ولا أن يستهان بأمره فيستعان عليه بالانفعالات المحمومة والأصوات العالية التي تضيع أصدائها في الفضاء ، وإنما هو شيء آخر يهدى إليه العقل وتقود إليه البصيرة . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حين يخطط لأمر الحرب والسلام يقدر قوته حتى قدرها في مواجهة الأعداء انطلاقاً من معنى تلك الحكمة السامية « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » ، فلم يكن هناك ما كان يمنعه من اللجوء إلى المسالمة مع قوم حتى يتفرغ لآخرين ، أو يماهد معشراً ليأمن شرهم ويفرغ لقومه وبناء مجتمعهم . ولقد خرج عليه السلام وأصحابه من مكة مهاجرين إلى المدينة حين لم يجدوا في مكة نصرة يتغابون بها ، وحين تنسموا نسيم هذه النصر في أهل المدينة . وحين رجع صلى الله عليه وسلم مع المسلمين إلى مكة معتمراً فصدته كفارها ، ورأى بظننته أن حرب هؤلاء يقتضى مزبداً من الإعداد والاستعداد لم يخاطر بنفسه ولا بالمسلمين على ما كانوا عليه من عقيدة وعزم يفلان الحديد ويتحان الصخر ؛ ولم يجد غضاضة أن يعقد مع الكفار صابحاً كانت شروطه تبدو مجحفة بالمسلمين حتى قال عمر

(١) سورة الانفال ، آية ٦٠ .

رضى الله عنه آنذاك : يا رسول الله ، ألسنا على حق ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ . فلما أتم العدة وامتلكت جماع القوة ، وأصبح من المنعة وعزة الجانب ما لا يخشى معه أعداءه ، وما وثق في أنه سوف ينصره عليهم ؛ خرج إلى مكة فاتحاً حين نقضوا العهد معه . وكان له النصر المؤزر عليهم . ولسنا نريد أن نعد ونحصى فالأمثلة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام أكثر من أن نعد ونحصى .

ومع مبادئ دوام الاستعداد في وجه كل معتد أثيم وضع الإسلام لأهله مبادئ تفصيلية يلتزمون بها فيكونون دائماً على الخلق الرفيع ومع المنطق السليم والحق المبين ، وتجري في ركابهم العزة العزيزة . ومن دونه المبادئ .

أولاً : عدم الاعتداء والبغى بتعال الناس من أجل أعراض الدنيا وطمعاً فيما يمتلكون من خيرات وأموال . أو من أجل السيادة وإخضاع المجتمعات الأخرى لسلطانهم ، فهذا شيء ينبغي أن يعف عنه المسلمون ، إذ الدنيا وما فيها عرض حائل لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت كذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء . ومن ثم لا تستحق أن يقاتل الناس بعضهم بعضاً من أجل ما تغرى به من رياض وزينة وساطان ، وإنما الذي يستحق أن يقاتل المسلمون من أجله هو سبيل الله وحق الله على عباده وإعزاز دينه ونصرته ، ولكن بلا اعتداء على أحد بل رداً لاعتداء المعتدين ، والدفاع عن حرمة الدين والوطن ضد من يريد انتهاكها « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم » (١) «... إلا الذين عاهدتم من المشركين فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . . . وإن نكثوا أيمانهم من

(١) سورة البقرة ، آيات ١٩٠ ، ١٩١ .

بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ،
 ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدعوكم أول مرة» (١) .
 ثانياً : البعد عن أن تكون العقيدة الإسلامية في حداثاتها محرمة لانفعالات
 الحرب . سعيًا وراء إجبار الناس على اعتناقها ، فالإسلام في كل تشريعاته
 يخاطب الضمائر والعقول ودخيلة النفوس . وليس يذم المسلمون مسلماً انتسب
 إليهم وهو لدينهم كاره أو غير مقتنع وراض به ، بل قد يكون على العكس
 من ذلك معول هدم وأداة تحريب ، كما كان حال المنافقين أيام الرسول صلى الله
 عليه وسلم ، والتاريخ يذخر بنخبهم ومكائدهم للمسلمين والإسلام مستترين
 وراء إسلامهم الكاذب . وفي هذا يقول القرآن الكريم فيهم : « لو كان عرضاً
 قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة . وسيحلفون بالله لو استطلعنا
 لخروجنا معكم (٢) ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم أنهم لكاذبون (٣) » ، « ولو أرادوا
 الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبجاشهم فذبطلهم وقيل اقعدوا مع
 القاعدین ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم
 الفتنة ، وفيكم سماعون لهم » (٤) .

ولعل في قوله تعالى . « ادخ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة
 وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم
 بالمهتدين (٥) » ، دعوة صريحة إلى نبذ القتال من أجل اعتناق الدين الإسلامي ،
 وإشارة واضحة إلى السبب في ذلك ، فالأساس هو الدعوة المسالمة والحجة
 المقنعة والبصيرة والحدق في الجدال وعرض الأفكار ؛ ذلك لأن الله وحده هو
 الذي يعلم ما تكن القلوب وما يقر في النفس ، ولستم أيها المسلمون على مستوى
 رب العزة في المعرفة ، فإن حاربتم وأسلم الناس لكم كرهاً وخوفاً من قتالكم فمن

(١) سورة التوبة ، آيات ٩ - ١٥ .

(٢) أن للقتال .

(٣) سورة التوبة ، آية ٤٤ .

(٤) سورة التوبة ، آيات ٤٦ ، ٤٧ .

(٥) سورة النحل ، آية ١٢٥ .

الذى يظلمكم على قلوبهم ؛ ومن الذى يدريكم أنهم أسلموا فعلا ودخل الإيمان إلى قلوبهم ؟ وهل تأمنون شرهم إن هم انضموا إلى معسكركم وهم على هذه الحال من الدخول ؟ ولو كان اعتناق الإسلام من الميادىء التى شرع الله القتال من أجلها لكان المنافقون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هم أولى الناس بالقتال ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد عراهم ، وأناب بما فى قلوبهم ، وأخبر عنهم بالآيات الكثيرة التى تفيض بها سورة التوبة وغيرها أنهم كانوا فى إسلامهم كاذبين ، ومن ثم استحقوا عند الله أشد العذاب : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » (١) . ومن آيات التعرية للمنافقين قوله تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم » (٢) ، « إن تصيبك حسنة تسوهم ، وإن تصيبك مصيبة يتمنوا قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويؤاؤا وهم فرحون » (٣) ، ولو كان الأمر كذلك وشرع القتال لإجبار الناس على اعتناق الإسلام ما شرعت الجزية أخذاً من أهل البلاد المفتوحة إن هم رضوا بكفرهم ، ولما ذبل منهم غير الإسلام . وانظر إلى توله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (٤) ، فلو كان السيف هو طريق الدعوة إلى الله لكان الظفر بالمشركين فرصة أى فرصة لإجبارهم على الإسلام ، ولكنه الإقناع والافتناع ، ومن ثم كانت الدعوة إلى إسماعهم ما يدعو إليه الإسلام ، ثم بعد ذلك وفاء بعهد الحوار إلى أن يتم لهم الأمان بلا حوار .

وفى هذا السبيل أكد القرآن فى مواطن كثيرة أنه « لا إكراه فى الدين » (٥)

-
- (١) سورة النساء ، آية ١٤٥ .
 - (٢) سورة التوبة ، آية ٦٤ .
 - (٣) سورة التوبة ، آية ٥٠ .
 - (٤) سورة التوبة ، آية ٦ .
 - (٥) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم (١) » ، « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فلإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فلإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (٢) ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » (٣) ، « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٤) ، « إنما أنت منذر من يخشاها » (٥) « قل يأيها الكافرون . . . لكم دينكم ولي دين » (٦) . . . إلى غير ذلك من الآيات .

ثالثاً : الصدق والإخلاص فى القتال إذا وقع ، والحرص والحذر من مباغطة الأعداء ومكرهم ، وعدم الفرار من المعركة مهما كانت الظروف . « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غاظة » (٧) . « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (٨) . وفيه — والله أعلم — فوق مسايرة طبيعة القتال فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم — إشارة إلى حتمية التكاتف والتآزر والصدق فى ملاقات الأعداء ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويتمتلون ، وعداً عليه حقاً فى النوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (٩) . « ومن يولم يؤمنه دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، وأوأه جهنم وبئس المصير » (١٠) ، « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون

(١) سورة انزوم ، آية ٥٢ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٠٨ .

(٣) سورة يونس ، آية ٩٩ .

(٤) سورة الناشية ، آيات ٢١ ، ٢٢ .

(٥) سورة النازعات ، آية ٤٥ .

(٦) سورة الكافرون ، آيات ١ ، ٦ .

(٧) سورة التوبة ، آية ١٢٣ .

(٨) سورة الصف ، آية ٤ .

(٩) سورة التوبة ، آية ١١٣ .

(١٠) سورة الانفال ، آية ١٦ .

عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة» (١).

وليس القتال والصدق فيه فقط ولكن معه الاعتماد على الله فهو أهم أسباب النصر ، وعدم الغرور بمدى القوة ووفرة العتاد الحربي فذلك من أقوى دعائم الغلبة ؛ فإنه « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (٢) ، وإنه « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٣) » ، « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » (٤) ، « وإذ يرى كهوهم إذ التفتيم في أعينكم قليلاً ، ويملأكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور . يأياها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله وأطيعوا رسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » (٥) .

رابعاً : الجنوح إلى السلام إذا مال جانب العدو إليه ؛ فالهدف النهائي هو السلام والاطمئنان ، والانصراف إلى تعمير الأوطان ، والإقلاع عن التعرض للمسلمين بأذى أو اعتداء . وما دام هذا السلام قد جاء إليكم أيها المسلمون ساعياً فلا تردوه ، وما دمتم في نظر أعدائكم وفي أنفسكم أقوياء فلا يحق لكم أن تحشوا السلام الذي هو غاية الغايات في الإسلام حتى جعلت تحيته الدائمة « السلام » . وأما القتال فليس بغاية في ذاته حتى تتشبهوا به وتصروا عليه وقد لاحت أمامكم بشائر السلام . ولأن السلام عنصر أصيل ومبدأ مطلوب

(١) سورة النساء ، آية ١٠٢ .

(٢) سورة الأنفال ، آية ١٠ .

(٣) سورة الأنفال ، آية ١٧ .

(٤) سورة التوبة ، آية ٢٥ .

(٥) سورة الأنفال آيات ٤٤ - ٤٧ .

ومحبوب في دين الإسلام لم يدع الله تعالى إليه دعوة عارضة ، وإنما دعا إليه باستيثاق وتأكيد وإغراء بما يجعله راجح الكفة؛ فوصل الدعوة إليه بالتوكل على الله، وبعدم الخشية من خداع الأعداء لأن الله لم يمرضد ، وناهيك بالله الذي ألف بين قلوب المسلمين ، وجعلهم على هذا المستوى من الإخلاص والتعاون والمحبة والاجتماع على النصر في الحق بعد ما كانوا من الذنرة والشقاق إلى حد لا ينفع معه ما في الأرض جميعاً لو أنه انتمى على اقتلاعه من نفرهم . وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » (١) .

خامساً : ثم هالك القواعد التفصيلية الأخرى والأحكام الخاصة التي وضعها الله للمسلمين كي يسابروها ويطلبوها في قتالهم مع أعدائهم إذا وقع طبقاً لهذا الأسلوب العام الذي سبق توضيحه ، والذي يخلو من العدوان والبغى ، ويفضل السلام إذا التزم به الجانب الآخر . ومن ذلك معاملة الأسرى ، والتصرف في الفئ والغنائم وغير ذلك مما ينبغي ألا ندخل هنا في الخوض فيه . ومرجع الحديث بإسهاب عنه هو الكتب المتخصصة في علوم الدين الإسلامي ، والتفاسير الشارحة لآيات الله الحكيم المتعلقة بمثل هذه الأمور ، ثم الأحاديث النبوية الموضحة لأحكامها .

النبضة الاقتصادية في الاسلام :

ليس هناك ما هو أحرص على رفاهية الناس والارتفاع بمستواهم في كل ناحية وعلى رأسها الناحية الاقتصادية من الإسلام ؛ وذلك أنه وضع نصب عينيه في تشريعاته عزة المسلمين في أوطانهم ، ودوام قوتهم وتفوقها على أعدائهم . ولن يكون ذلك إلا في مجتمع ناهض اقتصادياً ، مستقلاً استقلالاً حقيقياً بحيث لا تذله حاجة ضرورية إلى غيره من المجتمعات ، ولا تخضعه ضرورة اقتصادية ملحة لسامطائه ، ومن أجل ذلك وضع الإسلام للمسلمين من الأسس القويمية ما هو قدير على أن يجعلهم كذلك ، ويحقق اعتمادهم على أنفسهم ، ويوجب لهم السعادة مادياً وأدبياً .

وأول هذه الأسس أن جعل العمل قيمة كبرى في حياتهم ؛ فرفع من شأنه وقدس مكانته يجعله قسيم الإيمان في كل آية تذكر الإيمان في القرآن الكريم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يريدون ربهم بالإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم. » (١) « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدون فيها لا يبغون عنها حولا. » (٢) « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى. » (٣) « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون. » (٤) « ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات ؛ فأولئك لهم الدرجات العلى. » (٥) « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » (٦) « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض. » (٧) ولا شك أن الأعمال الصالحة التي تتحدث عنها هذه الآيات وأمثالها مما هو كثير جداً في القرآن لا تقتصر على ما يرتبط بأمور الآخرة ، بل يدخل فيها كل عمل صالح في أي شأن من شئون

(١) سورة يونس ، آية ٩ .

(٢) سورة الكهف ، آية ١٠٨ .

(٣) سورة الكهف ، آية ٦٠ .

(٤) سورة الانبياء ، آية ٩٢ .

(٥) سورة طه ، آية ٧٤ .

(٦) سورة القصص ، آية ٧٩ .

(٧) سورة ص ، آية ٢٨ .

الدنيا، بل عندى أن الجانبين لا ينفترقان؛ إذ كل عمل يصالح شأناً من شؤون الدنيا هو عمل للأخرة يجزى عليه عامله ثواباً عند الله. وانظر الى الآية الأخيرة التى تستنكر التسوية بين العمل الصالح والإفساد فى الأرض فقد جعلت الإفساد بالأعمال فى الحياة الدنيا مقابل العمل الصالح مما يبعثنا عن قصر هذا الأخير على الجانب الروحى عن الأعمال. ومن هنا يمكن القول بأن المفسدين بأعمالهم من البشر أنماط كثيرة يجمعهم الضرر وعدم النفع المرجى من وراء أعمالهم؛ فكل مهاون فيما نيط به من تحمل ومسئولية مفسد، وكل من يسرق فنية غيره وهو غير أهل لها مفسد، وكل من يؤدى العمل كيفما اتفق وبلا إتقان مفسد، وكل من لا يلتزم بواجبات وظيفته الاجتماعية مفسد، وكل من يئلف أو يهيب مالا ليس له مفسد، وكل متواكل فى أداء ما كلفه وأجر عليه مفسد، وهكذا... وعلى الضد من ذلك يكون الإصلاح بالأعمال؛ تلك التى يرجى خيرها ونفعها للفرد والمجتمع؛ مما يكون جنى الثمرة، وافر الإنجاز، قوى الأثر فى الأخذ بيد المجتمع إلى مستويات من الرقى يامع فى ثنائها المستوى الاقتصادى للفرد والجماعة. ولا يخفى أن الإفساد بالأعمال محبط لها، آكل لثمرتها، منبت للشرك والحنظل والحناف والوبال، وهى من وراء ذلك يرتفع اقتصاد الناس وترقره معيشتهم؟!؟!!

وفوق ارتباط العمل الصالح بالإيمان على النحو السابق فى الآيات الكريمة فقد خص الله تعالى هذا العمل الصالح بالتأكيد عليه منفرداً فى آيات أخرى كثيرة، فقال تعالى: «إنى لا أضيع تحمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» (١). «ومن تحمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» (٢). «ولكل درجات مما عملوا» (٣). «وما الله بغافل عما تعملون» (٤)، «ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً» (٥).

-
- (١) سورة آل عمران، آية ١٦٥.
 - (٢) سورة الروم، آية ٤٤.
 - (٣) سورة الأحقاف، آية ١٩.
 - (٤) سورة البقرة، آية ٧٤.
 - (٥) سورة يونس، آية ٦١.

« وقل أعمالوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١) ، « ونم أجر العاملين » (٢) .
 « ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٣) .
 « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » (٤) . « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل
 شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٥) .
 « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » (٦) .
 إلى غير ذلك من الآيات التي تحث على العمل وتؤكد للإنسان قيمته في حياته .
 وما أصرحها في هذا الصدد من آية تلك التي تقول : « هو الذي جعل لكم
 الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٧) . فلا تواكل إذاً ولا تكاسل
 ولا تماون ، بل الجهد والاجتهاد والنصب والعرق بالعمل بحتاً عن الأرزاق والكسب
 الحلال ، « فلا يقعد العبد في بيته ويقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تمطر
 ذهباً ولا فضة » . وإذا اتخذ الإنسان المسلم العمل بهذه الصورة مساراً له في
 حياته فصرف يغني ويثري ويغني بغناه ويثري بثراته مجتمعه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يتابع مسيرة القرآن فيبحث على العمل في مواطن
 كثيرة ، ويضرب المثل بنفسه . وهذا ما يقوله عليه السلام في تحبيد العمل
 للقادريين عليه : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره
 فيبيعهما خبير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وفي هذا المعنى ينهى
 صلى الله عليه وسلم رجلاً عن السؤال - وهو قادر على العمل - حتى إنه باع
 حليه ما في بيته بما لا يملك غيره كى يشتري له أداة تعينه على العمل وترك المسألة.
 والخلفاء الراشدون من بعده عليه السلام لم يتنحوا عن العمل على الرغم من

(١) سورة التوبة ، آية ٥٠

(٢) سورة العنكبوت آية ٥٨

(٣) سورة يونس ، آية ١٤

(٤) سورة يس ، آية ٣٥

(٥) سورة الملك ، آيات ١ ، ٢

(٦) سورة الكهف ، آية ٧

(٧) سورة الملك ، آية ١٥

مشاغلهم الكثيرة بأعباء الخلافة ، بل إن بعضهم أصر عليه في وجه من كان يقترح عليه أن يترك العمل ويتفرغ لشئون المسلمين مقابل جعل يؤخذ من بيت مال المسلمين . ولنا في هذا أسوة حسنة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وليس العمل وحده هو المطلوب في الإسلام وإنما الإخلاص فيه معه ، والاتقان والإحسان وبذل الجهد أن يكون على خير مستوى حتى يقف في مجال الإنتاج والاقتصاد قيمة أى قيمة ، وحتى ينفع أساساً من أسس النهضة الاقتصادية المطلوبة في الإسلام . فالعمل المستهتر الهازل العارى عن الجدوية والصدق قلما يفيد صاحبه أو وطنه ، بل قد يضر بهما الضرر البالغ . ومن ثم فمن أجر على عمل عليه أن يرعى حتى هذا العمل كفاء الأجر الذى يتقاضاه ، ومن تولى مسئولية من المسئوليات عليه أن يقوم عليها خير قيام ، وأن يحسن الوفاء بها أحسن ما يكون الوفاء . وأكثر من هذا من كان يعمل لنفسه عليه أيضاً أن يحسن عمله وينجزه بأحسن صورة ممكنة ليكون مردوده مرضياً لا لشخصه فقط ولكن لمجتمعه كذلك حيث هو المستفيد في نهاية المطاف من ثمرات الأعمال الفردية . فالصانع إذاً عليه أن يتقن صناعته لتروج فيربح ويربح وطنه معه ، والزارع عليه أن يكد ويعمل كل جهده كى يزداد إنتاج أرضه فيستمتع له الرزق وتسهم غلته النامية في سد حاجات الناس وترقيه حياتهم ، والمدرس - ومسئوليته في مهنته كثيرة هو يعرفها - عليه أن يستجيب لنداء الضمير الحى في تربية النشء والارتقاء إلى مستوى مسئولياته ، والمهندس والطبيب والخبير في شأن من الشؤون وكل إنسان مكلف بعمل أو بصدد أن ينجز لنفسه عملاً عليه أن يحسن عمله هذا وينهض هممته . وكل من يعد العاملين للأعمال في المجتمع أو يختارها الكفايات من الناس عليه أن يعطى القوس باريها ، وأن يطلق الهوى والوصولية وعدم الحيدة ، وألا يجعل غير الكفاية معياراً ، وإلا فلن يكون محسناً عمله . وجماع هذا كله هو قوله تعالى « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » (١) ،

فأطلق معنى العمل ليشمل كل عمل صغيراً أو كبيراً ، عظيماً أو حقيراً ، يدوياً أو عقلياً. ومن ثم يدخل في معناه تلك المسؤوليات التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « كللكم راع وكللكم مشول عن رعيته » . وفي معنى إتقان العمل والإخلاص فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

إن كل إنسان لو أنه استجاب لقولة الإسلام في صدق العمل الذي يريد من أهله ، فأتقن ما يعمل ، وأنجز في صدق ، وتحمل مسؤولياته بإخلاص ، وأعطى كل ما عنده ولم يدخل بشيء على كل ما يؤديه لنفسه أو لمجتمعه ؛ لبنى مجتمع المسلمين على أساس من الكفاية والرفاهية والكمال الاقتصادي بما يضمن للجميع السعادة والعيش الرغيد والاستقلال الحصين .

ومن الأسس التي ترفع من النهضة الاقتصادية للمسلمين ما شرعه لهم الإسلام من التعاون الخير ؛ حيث إنه - كما هو خلق فاضل - هو من أهم دعائم النهضة الاقتصادية ، بل إنه - والحق يقال - كان فضيلة إنسانية بما يحمل من تلك الآثار الطيبة المفيدة ؛ إذ لو فقد المجتمع فضيلة التعاون لهدم كل إنسان ما يبنيه غيره ، ولتفتت الجهود فضاقت هباء ، ولصاغ كل فرد تفكيره وإنتاجاته في قالب شخصي يقضي على التماسك والقوة ، ويحط من العزة والهيبة الاجتماعية ، وحينئذ يفشل المسلمون وتذهب ریحهم ، ويضل سعيهم ، ويسهل على الأعداء ازديادهم وابتلاعهم وإذلالهم . وفي هذا يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » (١) . وفي البر يدخل كل عمل فيه نفع وصلاح للفرد والمجموع . ألست مثلاً حين تخفض من استهلاكك وتزبد من مدخراتك متعاوناً مع الحكومة في العمل على نهضة اقتصاد الوطن ؟ ألست حين تحافظ على الأموال والممتلكات العامة متعاوناً مع المجموع في توفير متطلبات

الحياة الميسرة لأفراد الأمة بلا إصراف؟ أأنت حين تدفع ما عليك من استحقاقات مالية وغيرها قبل الدولة متعاوناً معها في إقامة المشروعات النافعة وتوفير الخدمات المرفهة؟ أأنت حين تساعد غيرك في قضاء حاجاته وحل مشكلاته متعاوناً معه في توفير وقته وإراحة نفسه ، فينهرف راضياً إلى كل نافع من الأعمال ، ويحني الوطن من وراء ذلك خيراً . وتكون بذلك متعاوناً مع الوطن أيضاً وعملاً على زيادة نهضته الاقتصادية؟ وهكذا مما يتصل بكل أبعاد الحياة .
 ثم أليس ذلك كله براً بنفسك وأهلك ووطنك ؟ !

وهناك من الأعمال التي لا تجود بخيراتها ولا تواني بسهمها في رفع اقتصاديات الوطن إلا إذا قامت على التعاون المكثف لحمة وسدى ، فالمصانع الكبيرة والمشروعات الضخمة لا تؤتي ثمارها إلا إذا تكاتفت في الأيدي والعقول ، فينشأ ناشئها ويصلب عودها بأصحاب الطول من الأمهال ، ويرتفع إنتاجها وتعظم غلتها ويم خيرها بمجهود الخالصين من أصحاب السواعد القوية ، وفكر المفكرين من أصحاب الفنيات العلمية المختلفة ، فمهندس زيني ، وباحث يطور ويخطط لمستقبل أفضل ، وطبيب يعالج ، ومدير يحكم الإدارة ويحسن تسيير الأمور . ولا يخفى ما يحتاج إليه معنى التعاون من إخلاص الجهود وصدقها وإلا كان مظهرها بلا مضمون وجسداً بلا روح . ومن هنا يتداخل معنى التعاون الحقيقي مع إحسان العمل ، بل يواكبه ويعضده كثير من الأخلاقيات التي سبق الحديث عنها كى يحقق مفهومه ويرفع من بنية الاقتصاد القوي .

ولعل الزكاة من أهم المظاهر التي تحقق للتعاون معناه العظيم تشريعاً إسلامياً من أجل التكافل الاجتماعي بين الناس ، وارتفاعاً بالمستوى الاقتصادي والترقي للأمة، ونهضة عامة للوطن . فالحاجات حين تسد يتجه الجميع إلى خير الجميع ، وشيوع روح الإخاء بين الغني والفقير — حين يشعر الأول بما يعانيه الثاني من أزمت الحياة فيجود عليه من ماله وغناه، وحين يشعر الثاني بعطف

الأول عليه والتفكير فيما يصلح شأنه - يشد من أزر المجتمع ، ويقوى من وحدته وتماسكه ، ويبدد الأحقاد ، ويأكل الحسد ، فينصرف كل فرد بأمان واطمئنان إلى البناء والتشييد ، ويتعاون بما يستطيع في منع الهدم والتخريب ، وبذا تسمو البنية الاقتصادية للوطن ، وتنحتمق السعادة لأفرادها. ثم أليس من حصة الزكاة هذه ينشأ بيت مال المسلمين ؛ ذلك الذى يسد حاجة المحتاج ، ويفتح لطلاب الأعمال بمشروعاته باب الأرزاق ، ويوظف من أهواله - إذا هيمن عليه مخلصون - فى كل ما يعود بزيادة الدخل العام والخاص ، ويحسم من الظروف الاقتصادية وينهض بمستواها ؟ ! !

ولن تقوم نهضة اقتصادية فى بلد من بلاد العالم إلا إذا قامت على أساس من العلم والمعرفة . وما « التكنولوجيا » الحديثة التى تتميز بها الدول الصناعية فى عصرنا الحاضر ونهض باقتصادياتها إلى أعلى المستويات ، بل تعد قوام انتطور والتقدم فى كل مجالات الحياة الحديثة الناهضة ، إلا نتاج البحث والدراسة والعلم والتعليم . والإسلام لم يغفل هذه الدعامة الكبرى وهذا الأساس المتين من أسس النهضة الشاملة بعامة والنهضة الاقتصادية بخاصة ، بل وضع العلم فى مكانه المرموق من حياة المسلمين ، ودعا إليه دعوات صريحة وقوية ومتكررة فى كتابه المقدس ، وحيد للناس كل الناس الاشتغال به كل بالقدر الذى يستطيع وبالمدى الذى هو مستعد له .

ولقد كانت أول آية نزلت من آيات القرآن الكريم تأكيداً للعماد الذى يرتكز عليه العلم ، ولا تنهض دراسة متعمقة مشمرة إلا به ، ولا يرتفع للمعرفة صرح إلا على عكازته ؛ ذلك هو القراءة والكتابة حيث يقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ؛ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (١) . وهل يعقل أن يدرس دارس فيحصل إلى نظرية تحكم بعض مظاهر الحياة أو ينتهى إلى نتيجة تنهض بوجه

من وجوهها بدون أن يكون قارئاً ؟ . إن هذا الافتتاح العظيم للقرآن الكريم من رب العالمين تأكيد واضح لمكانة العلم وحث للناس أن يأخذوا بسبيله من طريقته المستقيم وإلا لن تتوسع لهم مدارك ولن تتفتح لهم عقول ولن يمتدوا إلى سنن هذا الكون العظيم مما يأخذ بأيديهم إلى كل نهضة - وعماد كل نهضة لا شك اقتصاد متحضر شامخ الأركان .

وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١) ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٢) ، دعوة كلها قوة إلى أن يرتفع صرح العلم بين الناس ليكون منهم العلماء الذين يخشون الله حق خشيته بما يعرفون عن الكون وبديع تنظيماته والقوانين التي تحكمه مما لا يستطيع بشر أن يسنها أو بشرعها . وليست الخشية فقط وإنما من وراء البحث والدراسة وكشف الحقائق يعمر الكون وتنمض مادياته ، وتخترع الاختراعات وتبتكر النظريات التي ترتفع بمستوى الوطن والأفراد مادياً وأدبياً ، ومن هنا يزدهر المستوى الاقتصادي لمجتمع المسلمين . وشيء آخر يأتي من وراء هذه الدعوة إلى خلق العلماء وهو تعليم غيرهم وتفقيهم بما علموا فيعلمون هم من علمهم ، ويخشون الله بخشيتهم مصداقاً لقوله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٣) ، وبما لا ريب فيه أن هؤلاء العلماء إذا تعلموا دين الله كما ينبغي أن يتعلموه فسوف يرفعون عن يعلمونهم غشاوة الجهل بما يوقنون به أن الله هو الحق وأن ما سواه هو الباطل لا بالكلام ولكن بما كشفوا من حقائق الكون وبما وصلوا إليه من قوانين على هديها تقوم الحياة السعيدة والعيش المرفه . وليس هذا فحسب ولكن يعلمونهم أن الدين الإسلامي يدعو عقولهم إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض ، ويفتح أمامهم مجالات البحث والدراسة على مصاريعها في كل

(١) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٩ .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

مظهر من مظاهر هذه الحياة الدنيا ، فلا خوف إذاً من خوض بحار العلم الزاخر ، ولا مكان للتردد في اقتحام حصون البحث والتجريب والنظر والتأمل تغذية لاستعداداتهم التي أودعها الله فيهم ، وسعياً وراء الكشف عن حقائق هذا الكون المليء بالكثير من الحديد والعظيم من المدهشات التي تحضره لأهله وتدر عليهم الخير الوفير ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (١). « إن في خلق السموات والأرض لآيات لأولى الأبصار » (٢).

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٣) ، « ستر بهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٤) ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » (٥) ، « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟ » (٦).

كل هذه الآيات — وأمثالها كثير — إغراء للإنسان أن ينظر ويتأمل ويبحث ويدرس هذا الكون الذي يعيش فيه بكل مظاهره ، وهو لا شك في دراسته وبحته سيرتفع شأناً ويعلو قدراً ويسعد حالاً ومالاً ، وهل بغير البحث والدراسة تستخرج كنوز الأرض من المعادن والغازات مما يعد من مرتكزاتها النهضة الصناعية والاقتصادية ؟ وهل بغير النظر والدراسة تعرف طبائع التربة في الأرض ، ومواقع الأجرام في السموات ، ونفع وضرر ما خلق الله من حيوانات وطيور وحشرات وغير ذلك ، فتتنظم أمور الحياة ، ويتكيف الإنسان لها.

(١) سورة يونس ، آية ١٠١.

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٦٤ .

(٤) سورة نحل ، آية ٥٢ .

(٥) سورة الفاشية ، آيات ١٧ — ٢٠ .

(٦) سورة الذاريات ، آية ٢١ .

بما يتوافر له من الإنتاج الزراعي والحيواني ، وبقية شر الأمراض ، ويقدر على إقامة المشروعات النافعة والصناعات المغنية ، ويفتح أمامه ينابيع الخير والبركة مالا وعمراناً ورفاهية وسعادة ، فتغنى أمته ويرتفع اقتصادها وكل شيء فيها ؟ .

وحتى لا ينقطع الإنسان عن البحث والدراسة وطلب العلم والمعرفة أخبره الله في كتابه العزيز أنه مهما جد في الدراسة وتعمق أسرار العلم وكشف من حقائق ونظريات فلن يستزف علم هذا الكون أبداً ، ولن يصل فيه إلى غايته ، وإنما سيكشف الحديد تلو الحديد ، ويصل إلى ما لم يصل إليه من قبل ما دام جاداً في طلب العلم ، مستجيباً لدعوة الله سبحانه وتعالى ألا ينقطع عن التأمل والبحث في أسرار الكون إلى أن تموت الدنيا بما عليها ، « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (١) وتأمل قول تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٢) وقوله تعالى « وفوق كل ذي علم عليم » (٣) ، تجدهما ينطلقان بوضوح أن شاطيء العلم لن يراه أحد مهما أجهد نفسه في السباحة وطال به المقام غوصاً في أعماقه (٤) .

التربية في الإسلام :

الحديث عن التربية في الإسلام ليس بعيد عما يحقق العنصرين السابقين وهما القوة الدفاعية والنهضة الاقتصادية ؛ إذ إن هدف التربية في الإسلام هو في نهاية الأمر تكوين المسلم لبنة صالحة لبناء المجتمع الإسلامي على العزة والرفاهية ، ولن يجتمع له ذلك إلا إذا تربى تربية سليمة قوامها خدمة المصالح الحيوية لوطنه .

(١) سورة الرحمن ، آية ٢٧ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .

(٣) سورة يوسف ، آية ٧٦ .

(٤) أرجع في تفصيل الكلام عن العلم والبحث عليه في الإسلام ما كتبه المؤلف في « بي

التربية » إدارة الطبع والنشر بجامعة تمار - تونس بليبيا ، ١٩٧٩ .

ومن ثم كان التشريع التربوي في الإسلام يعم البيت والمدرسة والمجتمع الكبير ، فوضع من الأسس التربوية ما يلتزم به الفرد في منزله وفي سلوكه مع أبناء وطنه ثم حين يتعلم في مكان خاص بالتعليم كالمدرسة . ولقد ضربنا فيما سبق العديد من الأمثلة الأخلاقية والسلوكية والتعامل الاجتماعي ما هو وأمثاله من التشريعات الإسلامية كتمثيل بتقويم شخصية الإنسان المسلم وتشكيله بالصورة التي تحقق الهدف التربوي العام أكمل بتحقيق (١) . وفوق ذلك لم يغفل الناحية التعليمية الخاصة في المدارس - وكانت في بداية أمرها مجالس الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ثم مجالس الخلفاء من بعده ، بجانب المساجد والأوقاف وغيرها ذبل أن تنظم المدرسة بشكلها الراهن .

ولسنا نأدعي أن الإسلام بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم قد حدد الحدود الضيقة للتعليم الرسمي الذي يريده لأبنائه ولكنه أكد اتجاهات واستن سناً ووضح معالم الطريق لمن يريد أن يتطور ويستحدث وينظم في ظل من هذه الاتجاهات والسنة والمعالم .

ولقد وضعنا سلفاً أن الإسلام قد حث على تعلم القراءة والكتابة وهما عماد التعليم وأداة العلماء ، كما دعا الناس إلى التقدم في الدين وهو - بجانب تنظيمه الجملة بين الابد وره - داعية إلى البحث والدراسة والنظر والتأمل المؤدية إلى الابتكارات والاختراعات واستحداث القوانين التي تنظم شؤون الحياة وترتقي بمراقفتها . ولقد حثب للناس العلم والانحراط في سلك العلماء بصورة مباشرة حتى لا تجمد حياة المسلمين ويتأخروا - إنهم أدركوا مرامي دينهم - عن ركب الحضارة والمحضرين فيسايروا تطورات العصر كلما خطا الزمن خطواته إلى الأمام .

ومن ثانياً ما نقرأ في القرآن الكريم ونعرف من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ومن سير الخلفاء والعلماء المسلمين نجد الكثير من الأمور التربوية التي لم

(١) ارجع الى مكتبتي في الصفحات السابقة تحت عنوان « وثائق الدين الاسلامي

للرد والجماعة . »

تستبين معالمها إلا بعد أن سبق إليها غير المسلمين ، ولو أن المسلمين وعوا أمر دينهم وقرآنتهم وسنة نبيهم لكانوا هم السابقين إلى كثير جداً مما سبقوا هم به .

فثلاً كان المسجد في الإسلام جامعة مفتوحة يقصدها الصغير والكبير والمرأة والرجل ؛ كل يأخذ من إمامه ما هو بحاجة إليه في أمر الدين وأمر الدنيا معاً على قدر ما كان يفهم هذا الإمام دينه في العصر الذي يعيش فيه . فكنت تجد فيه جميع المستويات الطالبة للمعرفة من ذكر وأنثى ؛ كلها تريد أن تتعلم وتستقي من نبع الإسلام الذي لم يغفل إطلاقاً تنظيم حياة الناس في هذه الدنيا . كما وضعنا قبل وكما نشير بعد ذلك . بل لقد كانت أبسط البسائط وأخطر المسائل تقضى في المسجد ، فكنت تجده مكاناً لتجييش الجيوش وتنظيم أمر الحروب والغزوات واستقبال السفراء والعظماء والرسل من كل مكان ، وكنت تجده أيضاً مدرسة للصغار يدرسون فيها دراسات منظمة ويتعلمون فيها مواد تعليمية بعينها ضمها منهمهم التي رتب لهم في عصور الإسلام المتتابعة طبقاً لمفاهيم أهل هذه العصور عن مناهج الدراسة والتعليم . ألم يكن هذا الاتجاه خليقاً أن يتطور على أيدي المسلمين — إذا وعوا — إلى فكرة المدرسة الشاملة والجامعة المفتوحة مما نسمع عنه في الآونة الأخيرة ؟ !!!

ومن الاتجاهات التربوية الجديرة بالاهتمام أن الإسلام لم يجعل للتعلم والتعليم زمناً يتهين إليه ، بل جعل الحياة كلها وعاء لهما . ومن ثم دعا الإنسان إلى أن يتعلم وألا ينقطع عن التعلم إلا إذا فارق الحياة ، وهذا هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم واضح كل الوضوح في هذه الدعوة « اطلبوا العلم من المهدي إلى الالحدي » ، وآيات القرآن الكريم المغرية بالنظر في الكون والبحث والدراسة وتعمق أسرار المظاهر الطبيعية لا تترك الإنسان فرصة الهدوء عن الكسب المعرفي يوماً أو ساعة؛ إذ هو مطالب أن يستجيب لها في كل حين وأن يتمثل مدلولاتها عملاً وتنفيذاً كلما واثته قدراته وسمحت ظروفه واستعداداته وطواعته مواهبه التي

هيئت له إنساناً من الله جل علاه . فقولته تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » (١) ، ونظائرها من الآيات مثلاً ليس طلباً وقتياً ينتهي بزمن معين من حياة فرد أو آخر ، وإنما هو طلب دائم الصديق والتوجيه لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم ومقدراتهم وفي كل الأزمان ، كما أنه ليس طلباً للنظر العابر من كل لإنسان وتحت كل الظروف وإنما هو طلب النظر الواعي المتأمل بما يتبادل مع ما يحمل الناظر بين جنبه من كفاية ومقدرة فهمية خاصة . ومن ثم فالفرد العادي ذو الثقافة المحدودة والعلم المتواضع ينظر نظرة الإعجاب والتفكير الدائم إلى هذا الخلق العظيم فيستشعر عظمة خالقه ومبدعه ، ويتمثل فيه ساطانه التموي وغابته وجبروته ، والعالم المطلعة والباحث المدقق ينظر إليه فيرى فيه مادة ثرية للدراسة واستكناه التوازنات والنظريات التي يدير عاينها فيبادر بإعمال عقله وتوظيف مواهبه وملكاتة البحثية دارساً متقبلاً من أجل الكشف عن هذه النظريات وتلك التوازنات فيعرف مسارات هذا الكون ويوظفها لخبره وسعادته، ورفاهة عيشه في دنياه سواء أكان ذلك في مجال العلوم الطبيعية أو الطبية أو الاجتماعية أو غيرها . وحين يعرف ويوقن بزيادة إيماناً بعظمة الخالق جل وعلا ، ويرتد خاشعاً كأكل ما تكون الخشية لله خاضعاً لربه لا تطاوعه جوارحه أن يقع في معصية تغضبه ، وصدق الله حين يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢) . وبطبيعة الحال ليس يصدق عليه أنه استجاب لنداء ربه بالنظر إذا فتر - وهو قادر - عن الدراسة المسلمة للخشية حيناً من زمان عمره الذي يحياه .

وقوله تعالى . « وفوق كل ذي علم عليم » (٣) ، ثم قوله أيضاً : « وما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً » (٤) ، إغراء دافع لكل ذي عقل وفكر ومقدرة معينة من المسلمين أن يجهد ما وسعه الجهد ويدرس ما مكنته الدراسة ليحصل على مقام أعلى في العلم ،

(١) سورة يونس ، آية ١٠١ .

(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

(٣) سورة يوسف ، آية ٧٦ .

(٤) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .

ويستزبد من القليل الذي أعطى للبشر أجمعين ، وهو — وقد آمن بالقرآن كتاباً منزلاً لا عوج فيه — كلما وصل إلى مرتبة علمية فوقه عليهم ، وكلما نال حظاً من معرفة أو كشف عن حقيقة أو وصل إلى جديد مبتكر فإنما ذلك قطرة من بحر زاخر وما زال ينتظره الكثير والكثير جداً من قليل علم الناس ، وحينئذ فالإغراء الدافع له كفى يعلم علماً جديداً ويصل إلى حقائق لم تكن ، قائم لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة. يصدق هذا لاشك على الإنسانية بجمالها وبما تزخر به من عقول جبارة وإمكانات تقنية هائلة تموج بها الحياة على مدى الأجيال المتلاحقة إلى يوم القيامة ؛ إذ القرآن معجزة باقية الإعجاز وآياته صادقة الدلالة في كل وقت وفي كل مكان إلى يوم يبعثون ، فالفرد إلى أن يموت بعلمه عليه مهما سما علمه ولم يحصل إلا قليلاً مهما كثرت معارفه ، وجميع الناس إلى أن تقوم القيامة فوق ما علموا عليهم مهما طوفوا وارتفعوا علماً وإدراكاً، وهم بما فاض لهم من علم وضاعت به رحاب المعصورة لم ينالوا إلا قليلاً .

أليس هذا وما يجري في مجراه مما تدل عليه آيات القرآن الكثيرة والأحاديث النبوية العديدة من مثل : « تعلموا العلم من المهد إلى اللحد » كان خليفاً بالمسلم الزاوي لأمر دينه أن يقول بفقرة « التربة مدى الحياة » ويسبق السابقين ؟ ! ولقد وضع الإسلام في تربيته العامة والخاصة نظاماً مثالياً للتوابع والعقاب في المواقف التربوية أشارت إليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفصله علماء المسلمين الأوائل من أمثال الغزالي وغيره استهداءً بما فهموا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهو نظام إن عرضته على علم النفس الحديث لم تجده يعارضه أو يناقضه ، وإن طبقت في المواقف التربوية نجحت وأفاجت وتوافقت مع أحدث الاتجاهات التربوية (١). أليس يعنى هذا أن الإسلام في تربيته كان سابقاً وإن كان المسلمون لم يكونوا مثله سابقين ؟ !

وهناك من الأسس السليمة والاتجاهات التربوية القويمة في الإسلام

(١) ارجع في تفصيل التول في هذا الموضوع وفي بعض الاتجاهات الحديثة في الإسلام إلى : حسين سليمان نمرة - في التربية ، مرجع سابق .

ما لا نستطيع الخوض في تعداده ؛ إذلسنا بصمد تحقيق هذا الغرض . وتكفيها الإشارات السابقة لتقرر أن هذه المبادئ والاتجاهات التربوية وأمثالها في الإسلام حرية أن تبنى مجتمع المسلمين ناهضاً قوياً يضمن لأعضائه أن يعيشوا فيه أعزة غالبين .

تحرير الفكر الإنساني

ليس هناك دين قد حرر العتول الإنسانية وفتح أمامها طريقاً بلانهاية إلى التفكير والتأمل والابتكار والاختراع مثل ما فعل الدين الإسلامي . فكل تشرعاته مسايرة للعقل والمنطق ، وليس فيه من شيء يحرم على النقاش والتعليل اللهم إلا القليل النادر الذي شرع فيما يبدو لاختبار قياد المرء لأوامر ربه ؛ ومع ذلك تطرق إليه تعليل العلماء ، ولم يعلق باب العقل إلى الجدال حوله بصورة قاطعة .

ومن ناحية أخرى لم يجعل الإسلام وساطة بين العبد وربّه بحيث تتحكم في تفكيره إن أراد أن يفكر في أمور الدين كى تبقى له السلطة الدينية المطلقة كما كان الحال في بعض الأديان فترة من الزمن عبر التاريخ ، وليس هناك من قوة تمنع المسلم أن يبحث ويدرس . وقد دعا القرآن بآياته الكثيرة إلى البحث والدراسة والعلم والمعرفة من غير حدود ، فأغرى الناس أن يتعلموا ما لا يصح بحث وعلم إلا به وهو القراءة والكتابة بأول آية افتتحت بها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم . بل جعل الإسلام العلم سبيلاً إلى الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى ، إذ به يقف الإنسان على القليل العظيم من جوانب الجلال والكمال في أسرار الكون ونواميسه التي أبدعها خالقه وحكمها في مساره . ولست أريد في هذا الصدد أن أكرر آيات كثيرة سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن « نشأة الدين وتطوره » و « نهضة المجتمع وقوة بنائه » ، ولكن أريد أن أذكر هنا بآيتين اثنتين : الأولى قوله جل وعلا : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (١) ، فلن تم هذه الرؤية لبني الإنسان بعلم لدني أو وحى يوحى حيث قد توقف ذلك منذ زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يتم ذلك بلا شك عندي بالبحث والكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر الكونية وتعمل عملها في كل قطاعات الحياة ، فالآية إذا دعوة مؤكدة إلى أعمال العقل وتحرير الفكر من كل قيد . والثانية قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٢) ، فهي تأكيد مؤكد لمحاولة الوصول إلى خشية الله حقيقة وباكبار وإعظام عن طريق العلم والكشف عن مجاهل الكون بالدراسة والبحث ، وليس ذلك إلا فتحاً من الإسلام عظيم أمام العقول البشرية كيلا تنقف عند حد محدود من العلم والمعرفة والدرس والتنقيب عن سر عظمة الخالق فيما خلق وإبداعه فيما أبدع ليزداد أصحابها خشية من الله وليرتفعوا بمخشيتهم إلى مراقى الفلاح .

ولا أدل على تحرير الإسلام للفكر الإنساني من دعوته إلى الاجتهاد في الدين ، ومن إقراره لمبدأ القياس وهو قائم على التفكير والمنطق . وفي حديث معاذ بن جبل حين أوفده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن معلماً ما يؤكد هذا المعنى ؛ فقد اختبر فطنته الدينية وامتدح إجابته حين سأله عن المسألة تعرض له فلا يجد لها حلاً في كتاب الله وسنة رسوله فأجاب : أجتهد فيها بالرأى والقياس على ما جاء في كتاب الله أو سنة رسوله . وبهذا الاتجاه الإسلامى اختلف علماء المسلمين في بعض أحكام الدين الإسلامى فرأى كل رأيه على قدر ما فهم ، ولم يكن في ذلك غمضاة ولا عيب ، ولم يعترض عليه معترض من المسلمين . وما زالت آراء هؤلاء العلماء تدرس وتعلم في مدارس البلاد الإسلامية ومعاهدها ، ومن هذه الآراء ما يتصل ببعض القضايا الدينية الكبرى كأفعال العباد ، وتأويل بعض آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » (٣) ، وقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٤) . وغير ذلك كثير .

(١) سورة فصلت ، آية ٥٢ .

(٢) سورة ناظر ، آية ٢٨ .

(٣) سورة الفتح ، آية ١٠ .

(٤) سورة طه ، آية ٥ .

وجملة القول أن الإسلام لا يعارض العقل أن يفيض بأفكاره ، بل إنه يدعو ويغريه بهذا الفيضان كى يرتفع صرح العلم ويتطور فيرتفع بارتفاعه صرح الإيمان بالله وتشتد الحشية من جلاله وجبروته . أليس « تحرير الفكر الإنساني » بهذا وظيفة هامة من وظائف الدين الإسلامي ، به تستقيم عمارة الكون التي أرادها الله سبحانه وتعالى بجعل الإنسان خليفة في الأرض ؛ قال تعالى : « هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (١) ، وقال : « ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢) .

على أن الله سبحانه وتعالى فتح للناس في الإسلام باب الأخذ بالحجة والدليل العقلي في الأمور الدينية، فقال تعالى في معرض إثبات الوحدانية له جلّت قدرته : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » (٣) ، وقال : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذأ لا تبغوا إلى ذى العرش سبيلا » (٤) ، « إذأ لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (٥) . إن هذه الآيات وأمثالها تقوم على النقاش المنطقي وإظهار الحجة العقلية الدامغة بأن الله واحد لا شريك له . ألسنا نقول حديثاً عابراً نطلقه قضية ذات مفهوم لا يحتمل الجدل عقلاً : « المركب التي فيها ريسين تغرق » . وإذا كان العربي القديم قدقال حقاً لا مرأه للعقل فيه قبل أن يهديه هاد « الأثر يدل على المسير والبصرة تدل على البعير ، ألا يدل ذلك (٦) على اللطيف الخبير ؟ » ؛ إذا كان هذا هو قول العربي على النمطه فإن القرآن قد ساير منطقته بالآيات الكثيرة التي تثبت وجود الله لا اعتماداً على خوارق العادات وإنما بالبرهان العقلي ومناقشة تفكير الإنسان مناقشة منطقية ، فقال تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم » (٧) ،

(١) سورة هود ، آية ٦١ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٤ .

(٣) سورة الانبياء ، آية ٢٢ .

(٤) سورة الاسراء ، آية ٤٢ .

(٥) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .

(٦) بقصد الكون وما فيه من بدائع .

(٧) سورة الذاريات ، آية ٢٠ .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » (١) ،
 « إن في خالق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر
 بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث
 فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض
 لآيات لقوم يعقنون » (٢) ، « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء
 والأرض (٣) ، « إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين » (٤) ، وفي ضدد
 التدليل على قدرته تعالى على البعث يقول الله جل وعلا : « وضرب لنا مثلا
 ونسي خلقه قال : من يحيى العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة
 وهو بكل خلق عليم » الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه
 توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بمقدر على أن يخلق مثلهم » (٥)
 وفي معرض إثبات أن القرآن الكريم من عند الله لا من قول محمد صلى الله
 عليه وسلم يقول الله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ؛ لسان الذي
 ياحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (٦) . أليست هذه الآيات –
 وأمثالها في القرآن الكريم كثير -- تناقض العقل والمنطق في الإنسان ، وتدعو
 أن يؤدي دوره في الفهم وسلامة التفكير ، وعدم تعطيل عقله أن يكون كما خلقه
 الله من أجله بغض النظر عن أى شيء آخر ؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرر العقول والأفهام كي تمارس واجباتها
 بلا قيود في هذه الحياة ، مثل تلك الآيات المتعلقة بأخص الخصائص الإلهية وهي
 وجود الله ووحدانيته وقدرته على بعث الإنسان وكون القرآن الكريم كلام الله :

-
- (١) سورة يس ، آية ٢٢ .
 (٢) سورة البقرة ، آية ١٦٤ .
 (٣) سورة سبأ ، آية ٩ .
 (٤) سورة الجاثية ، آية ٣ .
 (٥) سورة يس ، آيات ٧٨ – ٨١ .
 (٦) سورة النحل ، آية ١٠٣ .

ولا عليها أن تمارس ذلك فيما عداها من القضايا الدينية أو دنيوية .
 وفي النهاية أليس العقل مخلوق الله ؟ ثم أليست وظيفته الوحيدة هي
 التفكير ؟ فكيف إذاً يعقل أن تسلب منه وظيفته ويبقى معطلاً وكأنه خلق
 في الناس عبثاً ؟ . والله يقول : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لالعبيين ،
 لو أردنا أن نتخذ لهم آياتاً لآخذناهم من لدنا إن كنا فاعلين » (١) ؟ ! !

الدين في المنهج الدراسي

كانت للدين الإسلامي مكانة كبرى يوم كان للمسلمين صولة وجولة
 وحقاق إسلامي أصيل . ولتدكاونا باسم سماحة الإسلام وعدالة أهله يفتحون
 البلاد فيرحب بهم أهلها تحامياً من ظلم حكامهم وعتت الحياة التي يلاقون
 على أيديهم . وظلت الحال هكذا رديحاً من الزمن سعد فيه المسلمون بإسلامهم ،
 وشغفوا وشغف الناس حولهم بتعاليمه ، فدخلوا فيه أفواجا ، وتعلموا اللغة العربية
 من أجل أن يتعلموا قواعده وأصوله وعلومه ، بل ويبرعوا فيها بما لم يبرع مثلهم
 كثير من أوائل المسلمين ، حتى ازدهرت على أيديهم وأيدي أمثالهم دراسة
 علوم الدين في عهود الإسلام الأولى ، وانتشرت مدارسها شرقاً وغرباً .

ثم كان وقت نزل فيه المسلمون على سنة التطور فهانوا على أنفسهم ، وتقلص
 سلطانهم ، وطمع فيهم غيرهم فتغلبوا عليهم بما فرطوا في أمور دينهم ،
 وغفلوا أو تغافلوا عما يأمرهم به وينهاهم عنه ، وكان من الطبيعي أن يهون الإسلام
 بهمومهم ، وتضغر مكانته في الناس ، وتزول هيئته من النفوس ، وتقتلص دراسة
 علومه داخل المناهج الدراسية التي تقدم للمتعلمين . ولقد ساعد على هذا
 احتلال غالبية الأوطان الإسلامية - إن لم يكن جميعها - بالأجانب من غير
 المسلمين ؛ حيث تعصبوا ضد الإسلام - وإن أخفوا ما بأنفسهم - وحاولوا

بشئ الطرق الملتوية والصريحة أن يضعفوا من هيبة الإسلام وقدسيته في بلاد المسلمين التي يحتلوها. وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك كى يحفظوا عليهم مكاسبهم من احتلال أرض المسلمين ، لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامى إن ظل متمكناً فى النفوس المسلمة اهتزت عروشهم ، وأقل نجمهم بحكم دعوته المسلمين إلى الحفاظ على عزتهم وكرامتهم وعدم الخضوع إلا لله عز وجل ، وإن ضعف أثره وزال سلطانه ماتت فيهم جذوة الحماسة للنفور من المستعمر ومقاومته ، واستمرعوا عيش الذلة والمهانة فى كنفه .

وكان من أساليب المستعمر فى هذا الصدد أن خصصوا فى بعض البلاد المختلة على الأقل مدارس بعينها لدراسة القرآن الكريم وعلوم الدين مع بعض المناهج المزيلة ، ثم انكثروا بصرفون الناس عنها بإغفالهم - وهم الواهبون - شئون تلك المدارس ومتطلبات الدراسة فيها ، مع تركيز الاهتمام الأكبر والإغداق السخى على مدارس أخرى أنشئت فى كنف الدولة تغفل أمر الدين وتساير فلك المستعمرين . ولقد كان لهم ما أرادوا فى بعض البلاد المختلة وبعض ما أرادوا على الأقل فى بعضها الآخر ، وكان من الطبيعي - نتيجة هذه السياسة - أن خبا شعاع الإسلام فى نفوس المسلمين ، بل ونقر أهله من دراسة عاومه إلا قليلاً منهم ، واحتلت التربية الإسلامية فى منهج المتعلمين أدنى المستويات زمنياً وفعالية حتى بعد أن مستها يد الإصلاح بانحسار نفوذ المستعمرين عن أوطان المسلمين ، بل لقد وصل سوء الحال أن دعا بعض الناس إلى عزل دراسة علوم الدين عن المناهج المدرسية جريباً وراء ما يحدث فى بعض البلاد الغربية كأمرىكا مثلاً ، واعتبرها البعض هامشاً دراسياً لا لزوم له ، وإن ضمها المنهج فلا تستحق الاهتمام والعناية . ولذلك كانت تعورها التقلبات فى تفكير المسئولين عن التربية والتعليم ؛ فتارة تخصص للتحصيل فى مجالها درجات تقديرية لا تضم إلى المجموع الكلى للمتعلم حتى لا يتأثر رسوبه أو نجاحه بها ، وتارة أخرى - عند ما اعترض المعارضون - تخصص له درجات

تؤثر في النجاح أو الرسوب ، ولكنها تجبر - إن أدت إلى الرسوب - بدرجات النجاح في بعض المواد الأخرى . وهكذا ظلت الحال على هذا المنوال تأرجحاً واضطراباً في شأن المناهج الدينية بالمدارس .

على أن هناك شيئاً ينبغي ألا نغفله فيما جرى وما زال يجري في دراسة الدين وعلومه حتى في بعض البلاد القليلة التي اهتمت بها وأولوتها بعض العناية؛ ذلك أن هذه الدراسة تسير نمطية تقليدية لا تتطور فيها ولا تكبير في تطويرها ، فقواعد الدين تحفظ وتسمع ، وآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية تقرأ بلا حذق ولا فهم ولا ارتباط بما تعنيه في علوم الدين الأخرى . أما الناحية التطبيقية ، وأما ارتباط الدين بالحياة التي يمشيها المسلم ، وأما الفهم الخالي من التنطع والتعصب فلا شأن للمتعلم أو المعلم بها ؛ مما أشعر الناس أن تعاليم الإسلام في جفاء شديد مع المجتمعات العصرية وحاجاتها الملحة ومستلزمات العيش فيها ، ومما نذر المتعلمين من الدين ونشأهم على معاداته وعدم الالتزام بإقامة شعائره واتهاج سننه ، ومما ساعد دعاة الشيوعية وغيرها في دعاوهم الباطلة بأن الدين تواكل وانصراف عن العمل الجاد ، وإهدار مجهودات الناس فيما لا طائل من ورائه ، وإن الإسلام من كل ذلك - يعلم الله - براء .

وعلى الرغم مما يعانیه الإسلام من أهله ، وما يلاقيه من عنت على أيديهم ؛ فما زالت هناك صيحات حق تنادي بدراسته دراسة واعية متطورة ، فيها تفهم حقيقي لروحه وجوهره ، وتطبيق عمري لتعاليمه ، وعناية ظاهرة بعلومه بين المناهج المدرسية . وفي الآونة الأخيرة وبعد التقاء الرئيس السادات برجال الدين في جمهورية مصر العربية تقرر أن تكون دراسة الدين دراسة إجبارية ضمن مناهج التعلم في مختلف المراحل الدراسية ، وأن تكون بحيث تؤدي إلى تكوير المواطنين المؤمن بحق ، البعيد عن مواطن الزلق - الخريص على الالتزام بالخلق الذي يدعوا إليه جوهر الدين ، وأن تكون تلك الدراسة على قدم المساواة مع دراسة العلوم الأخرى التي تتضمنها المناهج الدراسية عناية وتقويماً .

ونحن في معرض الحديث عن الدين الإسلامي هنا نقول : إن نظرة عاجلة إلى جداول الدراسة السابقة (١) ، ترينا أن التربية الدينية أصبحت فيها ذات كيان ما من حيث الزمن المخصص لها ، والذي يكاد ياحتق بالزمن المخصص لبعض المواد الأخرى كالمواد الرياضية والعلوم ، ويتساوى مع الزمن المخصص لبعضها الآخر كالمواد الاجتماعية والتربية المسيحية ، ولكنها من حيث النوعية والفاعلية تكاد لا تجد لها صدى في نفوس المتعلمين ؛ وإلا فأين تصرفات الشباب المسلم التي نراها من خلق الإسلام المهنذب وآدابه العالمة ؟ ! أين في تصرفاته ما دعا إليه الدين الإسلامي من الإيثار ، والسماحة ، والعفو عند المقدرة ، وأدب الحديث ، وأدب الزيارة ، والتراحم ، ومشاركة المواطنين في السراء والضراء ، والتعاون على الخير وفي سبيله ، وعدم أكل أموال الناس بالباطل ، والحرص على النظام والنظافة ، وإحسان الأعمال ، وعدم الإسراف في الإنفاق ، والتضحية في سبيل أداء الواجبات ، وحب الخير للناس ، ونبذ الحقد والحسد ، والتواضع ، وقول الحق والتعصب له في وجه الطاغية المتجبر قبل غيره من الناس ، وحرية الرأي والتفكير ، ورد الأمانات إلى أهلها ، وإصلاح ذات البين ، والعدل بين المتخاصمين ، والبعد عن الشتائم والردائل وإساءة الناس بما يكرهون كتلقينهم بألقاب السوء وإفساد ما بينهم بالتميمة ، والبعد عن النفاق والتزلف المزرى للرئيس والمرعوس ، والكثير جداً من مثل هذه الأخلاق السامية التي تهدي إليها الفطرة الإنسانية السليمة ، والتي لا نستطيع لها عدا ؟

أين في تصرفات الشباب صدى الصلة الحقيقية بينه وبين ربه متمثلة في أداء شعائر الإسلام بأمانة وإخلاص مما يربى فيه الضمير الحى الذى يراقب الله في السر والعلن ، ويحاسب النفس قبل أن يحاسبها محاسب آخر ، ومن ثم يضرب بالقوانين الوضعية عرض الحائط لأن هناك رقيباً أقوى من تلك القوانين ،

(١) ارجع الى تلك الجداول ص ٤٨ - ٥٩ هـ

وله عليه الساطان الأكبر ، فتختفى الألعيب المشبوهة والحيل الملتوية على القانون ، وتنعدم بين الناس الأباطيل والأكاذيب والأحابيل ، وتموت الشرور والآثام ، ويسلم الوطن من مورد الهلكة والدمار ؟

أين فيما يقول الشباب ويفعل روح الدين الإسلامى الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرسى مفاهيم التعامل بين الناس على أسس قوية لا عوج فيها ؟ بل أين الكثير والكثير جداً الذى نفتقده فى المسلمين - ولن يأخذ بيدهم سواه من وهدة التأخر والجمود ، ويضعهم حيث مكانتهم الأولى قمة فى الناس ، وعلية فى الأقوام ، وعملاقاً بين الأقسام ، ومهابة متحركة ، وعلماء وفناً ، وقوة يحسب لها ألف حساب ؟ !!

ونحن لا ننكر أنه حين تؤلف توجيهات المناهج لتوزع على المدارس كى يسترشد بها المعلمون فى تدريسهم لا ينتقصها الكثير مما ينبغى أن يقال ، ولكننا لا ننكر من ناحية أخرى أن هذه المؤلفات لا صدى لها فى التطبيق العملى ، بل قد لا يراها ولا يترؤها المعلمون ، وتظل حبراً على ورق لا يسمع لها صوت فى مواقف التدريس . ويرجع ذلك لبعض الأسباب التى نذكر منها ما يلى :

١ - كثير من مدرسى الدين غير أكفاء لأن يتحملوا أمانة تدريسه ؛ إذ لا يستطيعون ترجمة ما ألف لهم قولا إلى مواقف تطبيقية ؛ وذلك لأن إعدادهم فيه من النقص العلمى والفنى ما يكفى لأن يصرفهم عن تنفيذ ما لا يستطيعون .

٢ - متابعة الموجهين فى هذا المجال لا تتعدى الناحية النظرية ؛ فلا يلتفتون إلى سائلك من معلم أو من متعلم ، ولا يحاولون الالتقاء فى توجيههم وتقويتهم بجوهر ما كتب من توجيهات - وقد يكونون هم الذين ألفوه وكتبوه - وكأن الأمر كله كلام فى كلام .

٣ - الإمكانيات المادية للمدارس لا تساعد على إحسان الإنجاز فى مجال دراسة الدين ؛ فلا وسائل معينة ، ولا حتى مكان لإقامة الشعائر ، وإن وجد

المكان فإنه يبقى طول يومه ينمى قلة الداخلين إليه وربما انعدامهم ؛ لأن جدول الدراسة في المدرسة لا يترك فراغاً لمزاولة مثل هذه الشعائر الدينية .

٤ - النظرة الاجتماعية للدين ما زالت في أدنى مستوياتها ؛ فالناس يصرفونه إلى النواحي الروحية التي قلما يعنون بها ، ولا يجدون من يبصرهم بأن الإسلام هو للدنيا كما هو للدين ، وأنه نهج إن اتجهوا نجحوا في دنياهم كما ينجحون في أخرهم .

ومن هنا نجد الأمر طبيعياً في انصراف مدرس الدين عن متابعة توجيهات المناهج . ولو كان كل ما يقال ينفذ تمهلاً لكانت الحال غير الحال ، ولأننتجت دراسة الدين نتائج مختلفة عما نراه اليوم واقعاً مرأ . واقرأ - إن شئت - هذه التوجيهات لتجد فيها من حلو الكلام كثيراً ؛ وذلك على غرار ما نقلناه من كتب الوزارة عن توجيهات المناهج فيما يختص بتدريس اللغة العربية (١) .

وإذا فدراسة الدين الإسلامي في حاجة ماسة إلى الإصلاح كى يرد للإسلام اعتباره الذى ذوى ، ويسمى بالمتعلم اليوم كما سما به بالأمس ، وينفتح طريق الخير واسعاً أمام من يطبق شرعته فيحسن التطبيق . وعندى أن الإصلاح يجد سبيله بأمر منها :

١ - الإعداد السليم للقبوم لمدرس الدين في كل مراحل التعليم من حيث الإلمام التام بالعلوم الدينية ، ومن حيث الفنية التدريسية في هذا المجال والتصرف المثمر في التعامل مع المتعلمين وحل مشاكلهم ، ومن حيث التفتح العقلى الذى يؤدى إلى فهم الإسلام وما يدعو إليه فهماً متطوراً يناسب العصر الذى يعيش فيه ؛ فهو لن يتأبى مطلقاً على مسابرة كل عصر وكل تطور ، ومن حيث الالتزام الأمين بروح الدين وجوهره في كل ما يقول ويفعل ليضرب المثل واقعاً حياً مؤثراً في المتعلمين على يديه .

وإذا كانت اللغة العربية مرتبطة بالدين الإسلامي ارتباطاً وثيقاً لا شك فيه ؛ فليس يعنى هذا - فى رأى - أن يسند تدريس الدين الإسلامى إلى مدرس اللغة العربية الذى ركز فى إعدادة لمهنة التدريس أو ينبغى أن يكون قد ركز على علوم اللغة التى زعرفها - وإن كان لا بد له من دراسة الدين دراسة مناسبة على ما نذكره بعد - اللهم إلا فى حالة الضرورة القصوى حين نفتقد المدرس المتخصص وحين يؤخذ فى حساب إعداد هذا المدرس البديل إلمامه بالدين وأحكامه بما يقدره على مواقف التدريس فى مجاله ؛ لأن المدرس الذى لا يحسن معرفة ما يقوم بتدريسه باقتصاره على معرفة القشور لا يعنى غناه . ولا يسد حاجات علمية كثيراً ما تعرض له ، بل قد يكون سبباً بتصرفاته الجاهلة مع من يعلمهم فى نفورهم من مادته ، وإغفالهم لتعمق أسرارها والوصول إلى جوهرها المرتمى وإن لم تنقصهم الاستعدادات لهذا . وليس كالدين الإسلامى ما هو فى حاجة ماسة إلى أن يدرس بعمق وإبانة وتطور وفهم عصرى يربطه بالحياة الحاضرة ، ولن يقدر على هذا كله إلا مدرس متخصص فى علوم الدين قد أعد لمهنته إعداداً واعياً متطوراً أخذاً - بطبيعة الحال - بنصيب مناسب من دراسة اللغة العربية على قدم المساواة مع مدرسى المواد الأخرى ؛ حيث اللغة العربية فى مجتمع العرب والمسلمين هى القاسم المشترك بين الجميع على ما وضحتاه فى القسم الأول من هذا الكتاب (١) .

٢ - إفساح صدر التنظيم الدراسى أمام المعلم المعد كى يؤدى دوره بإتقان وفاعلية ؛ فلا يضمن عليه بجرية التدرف ولا بالزمن المناسب ، ولا يقتصر فى الاستجابة لمتطلبات مواقفه التدريسية ، ولا يسمح لأى متعلم أن يمس جانب الدين من قريب أو من بعيد سواء فى مواقف التدريس أو بعيداً عنها . وهو من جانبه لا يدرس علوم الدين نظريات وكلاماً بلقنه وأحكاماً يخرطها دون اعتبار لما تفعل فى النفوس وتؤثر فى السلوك ، بل عليه أن يعنى بتطبيق ما يدرسه

في نفسه أولاً وفي تلاميذه ثانياً ، فيضرب لهم المثل الذي يتابعون ، ويقوم من نفسه الدليل الموجه بلا فثرة أو عويل ، ويثبت لهم عملاً أن الدين الإسلامي سلوك وتطبيق قبل أن يكون قاعدة وتقنيماً نظرياً ، بل أكثر من هذا يريد بهم بكل ما هو مقنع أن الإسلام يحس بتشريعاته وسننه كل نواحي الحياة الدنيوية من علم متطور وفن متحضر وأدب في التعامل بين الناس رفيع ، وحق اجتماعي راق ، وحياة ناعمة تزخر بمنجزات الصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك . ولا يغفل تبيان الحججة في الرد على التساؤلات التي قد تضال إذا أهملت إجاباتها أو لم تكن كافية شافية. ولا بأس بأن يقصد قصداً أو استطراداً إلى النقاط التي يعتمد لإثارتها المفرضون تشويه الدين الإسلامي فيسقط الكلام والنقاش حولها بسطاً مناسباً لمستوى تلاميذه بحيث يستبينون به وجه الحق ، ويتمكنون بما فهموا أن يردوا الضال إلى سواء السبيل ، وأن يقفوا في وجه العابثين محترفي الإفساد والتضليل من شياطين الإنس والجن على السواء ، والأمثلة في هذا معروفة لدى العالمين ، ومن بينها موضوعات الطلاق وتعدد الزوجات والرق في الإسلام ، وبراءة الفتوحات الإسلامية من إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، وغير ذلك .

وعلى الجملة نريد مدرس الدين الإسلامي أن يخرج لنا ذلك المواطن المسلم الذي يهخر بإسلامه ويعتز بعقيدته ، ويطبق شعائره عن يقين بأنها جدوية بالتطبيق ، ثم يسهم في تعمير الحياة الدنيا في الموقع الذي يكون فيه من وطنه بمنطق من دينه ، ويوحى مما فهم من أسلوبه في التشريع ، إذ بهذا يضرب المثل للناس أجمعين بأن المسلم الحقيقي فعال لا قوال ، بناء لا هدام ، مطور لا داعية إلى الجمود ، مشارك بأمر من دينه في صنع الحضارات وإقامة النهضات ، مفتوح العقل ، مبسوط الفكر ، خلاق مبتكر ، عامل جاد لا متواكل مقهور ، وهو في كل ذلك عابد لربه ، مستجيب لدعوة نبيه ، مثاب مأجور .

٣- وضع منهج الدين الإسلامى بحيث ترابط فروعهُ ، وينبئ بعضها على بعض ، ويأخذ أحدها من الآخر ، ويعضد كل فرع بقية الفروع لأنها كذلك فى طبيعتها ، ومسايرة تلك الطبيعة خير ما يؤدى إلى نجاح الدراسة . والواقع أن علوم الدين الإسلامى تتفرع فروعاً منها : القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، والتوحيد ، والسير ، وغير ذلك ، ولكل من هذه أهداف خاصة ينبغى تحقيقها بدراسته على ما نبيته بعد عند الكلام المفصل عن تدريس تلك الفروع . ولكنها فى النهاية تتجمع لتخدم هدفاً موحداً هو بناء الشخصية المسلمة الملتزمة بأحكام هذا الدين ، المنفذة لتعاليمه ، السالكة طبعاً لهديه وسنته . وإن ياتى المتعلم أبدأً بهذا الهدف ما لم يتعلم فروع الدين تلك مرتبطاً بعضها ببعض كما تقتضى به طبيعتها ؛ إذ لا يعقل مطلقاً أن يدرس القرآن الكريم وتفسيره بمعزل عن الفقه مثلاً وبهذا كان الأولان مصدر التشريع فى الثانى ، كما لا يمتثل أن يدرس الحديث عمائى عن القرآن الكريم وقد كان الأول شارحاً للثانى ومفصلاً لإجماله ، وبالمثل فإن السير الإسلاميه شائعة فى كل من القرآن والسنة ومنهما كانت وبنيت ، وموضوعات التوحيد والعميدة تعتمد اعتماداً قوياً وتتصل اتصالاً وثيقاً بما فهم من كتاب الله وحديث رسول الله ، وتنبئ استدلالاتها وما انتهت إليه من فكر على ما وقد فى ذهن العلماء واستنبطوه عندما قرءوا القرآن وتدارسوا الحديث بناءً على مبدأ تحرير الإسلام للعقل ، وتخطيطه لحدار الحروف من الجدل والنقاش حول القضايا الإسلاميه . وهكذا يقوم الكل على الكل ، ولا يستقيم الواحد بنفسه كياناً متيناً عن الآخرين .

ومن مستلزمات الترابط بين فروع التربية الدينيه فى المنهج الدراسى ألا يخصص وقت للتفسير وآخر للحديث وثالث للفقه وهكذا ، ولكن الدرس الذى يضم الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه الشارحة لها والأحكام الفقهيه المسنبطة منها يكون وحدة لا تمنع من دراسة بعض الآيات والأحاديث وحفظ بعضها

بعضها الآخر ، وقد تتصل الآيات والأحاديث بسيرة من السير الإسلامية فتدرس كلها وحدة أخرى ، وقد يكون اتصال الآيات والأحاديث ببعض قضايا العقيدة والتوحيد فتدرس كلها وحدة ثالثة . وقد يتم الارتباط بين الجميع بما يكون وحدة رابعة ، وهكذا . ومعنى ذلك بتوضيح أوضح أن أمر الارتباط بين فروع الدين الإسلامي يأتي بطبيعته من غير تكلف ؛ فليس من اللازم أن تتجمع كل الفروع في موقف دراسي واحد ، ولكن ليس من المنهول عندنا أن يقوم فرع بنفسه في الدراسة مفصلاً عما يرتبط به ارتباطاً طبيعياً ؛ وبخاصة القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين هما أصل التشريع ومناط أخذ الأحكام والقضايا الدينية .

وليست دعوى الاتصال بين فروع الدين الإسلامي دراسة ومنهجاً بواصلة إلى ما تقوم به الجامعات والدراسات العليا في هذا الصدد ؛ لأن لها شأناً يختلف عما نركز الكلام عليه هنا متصلاً بما قبل الجامعة من المدارس . وليس هنا مجال تفصيل التمول في الدراسة الجامعية وما بعدها ، ولكننا نقول بإمامة إن هذه المرحلة المتقدمة من الدراسة هي مرحلة التخصص والتعمق الفلسفي في علوم الدين التي نحن بصدد الكلام عنها ؛ ولا يمنع في ظل هذا التخصص أن يتفصل فرع عن فرع ويستقل بالدراسة ، كما لا يمنع أن تتطرق الدراسة الجامعية إلى موضوعات لا مكان لها في دراسة ما قبل الجامعة كتلك التي تتلقى بنظام الحكم في الإسلام وفلسفته أو التشريع الاقتصادي في الإسلام ، أو علم الاجتماع الإسلامي ، أو غير ذلك . أما مرحلة ما قبل الجامعة موضوع تركيزنا فنحن نهدف من دراسة علوم الدين الإسلامي فيها أن نخرج المسلم عقيدة قوية وتلتصق انصافاً عضواً بشخصيته ، ثم سلوكاً وممارسة عملية لما تقتضيه هذه العقيدة ، ولا يهمننا في هذه المرحلة من الدراسة أن نفلسف له النظريات ، أو أن نتفصل مذاهب الخلاف بين العلماء في مفاهيم أي فرع من فروع الدراسة الدينية .

٤ - العناية بإعداد مدرس المواد الأخرى المسلمين إعداداً دينياً مناسباً ضمن خطة إعدادهم لغيتهم الخاصة ؛ بحيث يخرجون إلى حياة التدريس العملية وقد أضاءت العقيدة الإسلامية بصيرتهم ، ووضعت في طريقهم الهداية متمثلة في الالتزام بالخلق الديني سلوكاً وتطبيقاً ، وإقامة للشعائر ، وتعظيماً وتقديساً للإسلام . وبذا يكملون مع مدرس الدين في المدرسة دائرة الفضيلة الدينية حول المعلمين قولاً وعملاً ؛ فلا يجدون فكاً كما من السير على درب تلك الفضيلة ، ويحسن انصهارهم في بوتقتها ، ونظف منهن بمن نتصده إليهم من وراء التربية الإسلامية ودراستها في المدارس العامة كما أسلفنا القول في ذلك .

ولعل متبرصاً يقول : وما شأن من لا يعلمون الدين من المدرسين بمعرفة الدين والإمام بتضايها ؟ ونحن - مع ما أحننا إليه من إجابة في الفقرة السابقة - نقول : السنا في مجتمع يدين بالإسلام عنصراً ثقافياً من أهم عناصر الثقافة فيه ؟ . فكيف إذا يسوغ في عرف التربية السليمة الداعية إلى التوافق مع المجتمعات وثقافتها في بناء المناهج ؛ كيف يسوغ أن نخرج للوطن غرباء عنه في أهم مقوماته الثقافية وهو الدين ؟ . بل إننا لا نغرب في القول إذا دعونا إلى امتداد رقعة التربية الإسلامية لتكون ضمن مناهج كل ضرب من ضروب المعرفة أياً كان إن كنا بحق نقصد إلى إحسان تربية النشء ونسلك إلى ذلك سبيلاً مستقيماً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن من لا يحسن العلم بالشئ قد يجهل غيره فيه إن تصدى لتعليمه إياه ، بل قد يصده عنه وينفره من الأخذ به . فإذا نحن أهملنا جانب الإعداد الديني المناسب في غير مدرسي الدين فقد نجحنا منهم بأناس يعارضون بأفكارهم ويشنتون بآرائهم ما يحاول مدرس الدين أن يغرسه في نفوس المعلمين ويربيهم عليه ، ومن ثم تنكسر دائرة الفضيلة حول المعلمين فيجدون إلى الضلال طريقاً ، وهذا ما نراه اليوم واقماً في مجتمع المسلمين وبين الشباب بخاصة ؛ حيث نجد الإفتاءات المضللة ، والافتئات في التفسيرات الدينية للتضايها التي تعرض للجميع من

حيث إن الدين عنصر ثقافي في مجتمع المسلمين . والنتيجة في نهاية الأمر وبال على المتعلمين يظهر في سلوكهم الشاذ وتصرفاتهم المضطربة الخرقاء .

٥ - العناية بمتابعة المعلم والمتعلم في ظل ما بيناه في النقاط الأربعة السابقة ؛ إذ لا يكفي أن يعد المعلم ويوضع له المنهج والخطة ، ولكن لا بد من متابعة التنفيذ ، وتقويم الإنجاز في إطار ما استهدف من أهداف ؛ ذلك لأن التقويم جزء لا يتجزأ من أي موقف تربوي وفي أي منهج دراسي ؛ إذا انفصل عنه تاهت معالمه ، وفقد صدها .

ومن هنا يتوّم المتعلم في منهج الدين لا حفظاً لقواعده واستظهاراً لأسسه وأصوله ، ولكن فهماً وتطبيقاً وسلوكاً . ويقوم المعلم لا في إحسان ما يلقى من معلومات ويعرض من موضوعات دينية فحسب ، ولكن يضم إلى ذلك تقويمه من حيث الالتزام الديني قولاً وعملاً لمبادئ الإسلام التي تمتد فتشمل النواحي الدنيوية كما تشمل النواحي الروحية . بل إن التقويم في منهج الدين الإسلامي لا يقتصر على المعلم والمتعلم كليهما ، بل يتضمن أيضاً الأثر الذي يحدثه المتعلم بتوجيه المعلم في المجتمع الذي يعيش فيه . فهل بفعل ما علمت المدرسة من أمور الدين - شاع في الطلاب مثلاً أن الحق أحق أن يتبع وأن النظم واللوائح وضعت لتنفيذ ؛ فلا إلحاح إذاً في شيء يقف القانون دون تنفيذه ، ولا غش ولا خداع ولا تفريط في واجب ، وهلم جرا . وهل - بما ربت المدرسة تربية دينية - تخلق الناس حين يتعامل بعضهم مع بعض بالفضائل التي يقرها الإسلام والتي أشرنا إلى كثير منها فيما سبق ؛ هل تغيرت مثلاً صفات كريمة لا يعرفها الإسلام وكانت شائعة بين المتعلمين من موظفي الدولة كمتقاضى الرشوة ، وعدم المبالاة في أداء الأعمال ، وتأخير قضاء المصالح المنوطة بهم والدخلة ضمن مسؤولياتهم قصداً إلى تحقيق أهداف غير شريفة أو مقبولة ؟ . وهكذا .

وعلى المسؤولين عن التربية والمناهج التربوية أن يضيفوا القواعد المنظمة

والمعايير الصحيحة التي على أساسها يقوم كل من المعلم والمتعلم وكذلك المجتمع بأسره وبكل طوائفه وقطاعاته في ظل الاعتبارات الدينية التي ينبغي أن تأتي وليدة التربية الدينية ودارستها في المناهج المدرسية والتي أسلفنا فيها القول مع التركيز على التطبيقات السلوكية .

الصلة الوثيقة بين ما يستهدفه تعليم الدين الإسلامي وما يستهدفه التعليم بعامة

من ثانياً ما أسلفنا من القول في وظائف الدين الإسلامي يتبين لنا أن هذا الدين يحيط بكل الجوانب التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيا بجانب تلك التي تشمل بالحياة الآخرة . ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن كل دراسة في أي فرع من فروع المعرفة هي ضرب من امتثال أمر الله تعالى حين دعا في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى التعلم والتعليم كما وضحنا سابقاً ، وكما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . ويقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ومن ثم فدراسة اللغة العربية وآدابها مثلاً طلب للعلم ، ودراسة اللغات الأجنبية طلب للعلم ، ودراسة المواد الاجتماعية طلب للعلم ، ودراسة العلوم البحتة والرياضيات طلب للعلم . . . وهكذا .

وقديماً اشتغل علماء المسلمين بدراسة الطب والهندسة والعلوم والرياضيات والفلسفة وغير ذلك من العلوم ، ووضعوا في كل منها الأصول والقواعد والمفاهيم الأساسية التي بنى عليها المحذون وكانت لهم المنارة ، وعدت بحق بداية المنشأ لهذا العلم أو ذلك . وما الحوارزي في الخبر والرياضيات ، وابن سينا في الفلسفة والطب ، وابن رشد في الفلسفة وسيبويه وابن جنبي في نحو العربية وأبو بكر الرازي وابن الهيثم وغير هؤلاء كثير إلا أمثلة يعرفها جميع المشتغلين بالعلوم كل

في ميدانه . ولم يكن هؤلاء العلماء بخارجين عن الإسلام فيما كرسوا له حياتهم . ولم ينكر عليهم مسلم اشتغالهم بتلك العلوم التي تعد في العرف الجاري دنيوية ، بل كانوا على العكس من ذلك عى رأس من خدموا الإسلام وفكرته الحققة ، ودعوته الصادقة إلى طالب العلم خدمة صادقة جلييلة شهد بها كل المسلمين وغير المسلمين .

ومن هنا نقول بكل فخر واطمئنان : إن تعليم الدين الإسلامى هو في حقيقة أمره كشف لما خفى عن بعض الناس من أن الدين الإسلامى يستهدف تنظيم الحياة الدنيا بما يتضمن تعليم الإنسان وتهذيبه وتثقيفه في كل ما يحتاج إليه المجتمع ، كما هو مس بجانب الآخرة بما ينظمه من أمر اتصال الإنسان بالله . ومعنى واضح فإن أهداف التعليم بعامة هي جزء مما استهدفه الإسلام ؛ بحيث إذا تقاعس عنه جميع المسلمين في المجتمع فهم آثمون مستوجبون لعقاب الله ، لأنهم تركوا فرضاً فرض عليهم بنص الحديث الشريف : « طلب العلم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ولم يحققوا هدفاً أرادته الإسلام من أتباعه . وإذا فالعلاقة وثيقة جداً وواضحة بين ما يستهدفه تعليم الدين الإسلامى وما يستهدفه التعليم بعامة ، فهماً متداخلاً مداخله لا شك فيها بحيث إذا ذهبت تفصل واحداً عن الآخر فصمته وهددت كيانه .

ولا يمان إن بعض ما يستهدف من التعليم في بعض البلاد الأجنبية هو خارج عن نطاق الدين الإسلامى ودعوته بالقسط كتعليم الإلحاد في الاتحاد السوفيتى مثلاً والبلاد الدائرة في فلكه ، فكيف بهذا المنطق يلتقى هدف تعاليم الدين الإسلامى بهدف التعليم العام ؛ والجواب عن هذا التساؤل هو أننا حين نتحدث عن أهداف التعليم بعامة وصلتها بأهداف تعليم الدين الإسلامى فإنما نتحدث عن ذلك في مجتمع إسلامى هو المجتمع الذى نعيش فيه ورتبط به ، فلا يعنينا خروج الخارجين من غير المسلمين في مجتمعاتهم وبعدهم بأهداف التعليم عندهم عما استهدفه الإسلام في دعوته إلى التعليم . وإلا فهل تستطيع أن

تجبر الصينيين مثلاً على عدم استماعهم لشربة أعشاش الطيور لأنك لا تستسيغها؟! ! إنهم وغيرهم في ظل ما يدينون به ويتعودون يتصرفون ويتعلمون، ونحن المسلمين في ظل ما ندين به، ونعود نتصرف ونتعلم كذلك، والمناهج التربوية دائماً تتشكل بشكل المجتمع الذي تعيش له وفيه :